

محمود محمد طه

رسالة الصلاة

الطبعة الخامسة

ربيع الثاني ١٣٩٠ — يونيو ١٩٧٠

امدرمان — السودان — ص ٠ ب ١١٥١

الامداد

الى كل رجل وكل امرأة
حيث وجد الرجال والنساء

بسم الله الرحمن الرحيم

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك
قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل
فسبح ، واطراف النهار ، لعلك ترضى * ولا
تمددن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ، زهرة
الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وابقى »

صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الخامسة :

هذه مقدمة الطبعة الخامسة من كتاب : « رسالة الصلاة »
وهو كتاب قد لقي ، بحمد الله ، وبتوقيقه ، اقبالا كبيرا ، ولا يزال
الطلب عليه يوجب اعادة طبعه .. ان الصلاة كانت ، ولا تزال ،
ولن تنفك اعظم عمل الانسان ، ولكن الناس لا يعرفونها .. هم
لا يعرفون لها هذا القدر ، وذلك لانهم لا يعرفون كيف يصلون ..
.. يقول ، تبارك ، وتعالى ، لنبيه ، عن الصلاة : « وامر اهلك
بالصلاة ، واصطبر عليها ، لانسالك رزقا .. نحن نرزقك ، والعاقبة
للتقوى » والتقوى هنا « ايصلاة » فكان الصلاة ، عندما تتسامى
الى القمة ، تكون هى سبب الرزق ، وتغنى عن الكدح الذى هو
السبب المألوف .. ولكن ، اى صلاة هذه ؟؟ هذه هى الصلاة التى

تكون فيها لربك كما هو لك .. هو معك دائما .. فاسأل نفسك :
هل انت معه دائما ؟؟ فان لم تكن ، فصل !! فانك لم تصل !! انك
لم تصل هذه الصلاة ، وانت لم تؤمر باقامة الصلاة الشرعية الا
لتفنى بك الى هذه الصلاة ..

تعلموا كيف تصلون ..

لقد صدرنا هذه المقدمة بآيتين هما في الصلاة ، وفي الرضا ،
الذى هو ثمرة الصلاة .. « وسبح » ابواردة في الآية معناها صل ..
وهي من السبح ، وهو التصرف ، والانتشار ، والتقلب في الارض
طلبا للمعاش .. ولقد قال تعالى في هذا المعنى : « ان لك في النهار
سبحا طويلا » فكان الصلاة حركة ، وانها لكذلك .. هي حركة من
الغفلة الى الحضرة ، ومن البعد الى القرب ، ومن الجهل الى المعرفة
.. وهي يجب ان تكون حركة خلف الله ، لا امامه ، في رضا به ،
لامنازعة له .. وهذا هو معنى قوله ، تبارك ، وتعالى :
« وسبح بحمد ربك » وذلك من قوله : « فاصبر على ما يقولون ،
وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آتاء
الليل فسبح ، واطراف النهار ، يعلك ترضى » والرضا هو طمأنينة
النفس لما تجد من برد الراحة يسكون جيشان الخواطر المشوشة
في الداخل .

تعلموا كيف تصلون ..

لقد كان النبي اكبر من صلى ، واكبر من عرف كيف يصلى ،
واكبر من عرف قيمة الصلاة .. كان اذا حزبه امر قام الى الصلاة
فتهون بالصلاة ، في نفسه ، مصائب الدنيا ، لانه يلقي بالصلاة
ارحيب الاعظم .. ولقد قال : « حبيب الى من دنياكم ثلاث :

النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » .. اقرا مرة
 أخرى : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » .. و « قرّة عيني »
 تعني « طمأنينة نفسي » .. فكان نفسه تتكدر ، وقلبه ينقبض ،
 وخاطره يتشوش ، فيضطر الى الصلاة اضطرارا فاذا قام اليها
 فاكتحلت بصيرته برؤية الحبيب الاعظم — الله — صفت نفسه ..
 وانبسط قلبه وسكن خاطره واصبح راضيا بالله ، قرير العين به ..
 « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ..

تعلّموا كيف تصلّون ..

ان الصلاة انما هي منهاج بممارسته نستطيع النظر الى
 داخلنا حتى نلتقي بانفسنا ، فنعايشها ، ونعرفها ، ونحقق السلام
 معها .. ذلك باننا انما نعيش العالم الخارجى مستغرقين باوهام
 حواسنا عنه ، لاهين به عن الحقيقة المركوزة وراءه ، والتي انما
 هو ظلها .. وقد جمّله الله دليلا عليها ، لا بديلا عنها ، ثم قال في
 ذلك « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم انه
 الحق » .. او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟؟ « فآيات
 الآفاق وسيلة ، وآيات النفوس غاية ، ولا تغنى الوسيلة غناء
 الغاية .. وما الوقوف معها ، والاحتجاب بها ، الا خسرانا مبينا ،
 وذلك ما نحن لآفته معرضون ، وفي خطره متورطون .. فلكانما نحن
 من فرط ما تحتوشنا دواعى الففلة قوم نيام .. نحن بحق قوم
 نيام .. الم يقل المعصوم « الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا » ؟؟
 بلى !!

وان لنا الى الانتباه لوسيلة اخرى غير وسيلة الموت ، وقبل
 وسيلة الموت ، وتلك هي وسيلة الصلاة الواعية ، الصحيحة ،
 الرشيدة .. وقد امرنا بها المعصوم حين امرنا : « موتوا قبل ان
 تموتوا » يعنى ارفعوا حجاب الففلة عنكم بالاطلاع على حقائق

الأمور المركوزة وراء الظواهر ، الآن ، وذلك بوسيلة الصلاة ،
قبل ان يجرى عليكم ذلك بوسيلة الموت ، فيما بعد ، فيكون الأوان
قد فات ، والندم قد وقع ، ولات حين مندم ..

تعلموا كيف تصلون ..

لكى ترفعوا عن بصائرکم ، وابصارکم ، حجب الاوهام
والباطيل ، وانما من اجل هذا التعلیم كتب هذا الكتاب الذى بين
ايديكم .. كتاب « رسالة الصلاة » والله هو المسئول ان ينفع به ،
انه نعم المولى ، ونعم المجيب ..



بسم الله الرحمن الرحيم

« قل اننى هدانى ربى الى سراط مستقيم ، ديننا قيما ، ملة ابراهيم ، حنيفا ، وما كان من المشركين * قل ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين . »

صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الرابعة

هذه هى الطبعة الرابعة من كتاب « رسالة الصلاة » ..
نصدرها فى هذا الشهر المبارك ، وكانت الطبعة الاولى منه قد صدرت للناس فى مثل هذا الشهر المبارك من عام ١٣٨٥ ، وكان يوافق شهر يناير عام ١٩٦٦ ، ثم ان طبعته الثانية ظهرت بعد مرور عام على طبعته الاولى ، وذلك قد كان فى شهر الله المبارك رمضان من عام ١٣٨٦ وكان يوافق يناير عام ١٩٦٧ .. ثم ظهرت الحاجة الى طبعته الثالثة فصدرت فى شهر محرم من عام ١٣٨٨ ، وكان هذا يوافق شهر ابريل من عام ١٩٦٨ . .

ولم تظهر اى من هذه الطبعات بمقدمة خاصة بها ، وانما كان ذلك بسبب الحاج الاعمال الاخرى علينا .. والآن ، ونحن نعد العدة لاجراء الطبعة الرابعة ، فانا ، بفضل الله ، وبالتوفيقه ، نجد الوقت ، ونجد العافية ، لتصديره بمقدمة طويلة تتناول بعض قضاياها باستقراء جديد ..

وليس في عمل الانسان ما هو اهم ، ولا اكمل ، ولا ما هو اعود
بالخير ، والنفع ، عليه ، ولا على الانسانية ، من الصلاة ..

والله تبارك وتعالى يقول : « من كان يريد العزة فلله العزة
جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه .. »
فالكلم الطيب هو التوحيد .. هو « لا اله الا الله » .. والعمل
الصالح ، على رايه الصلاة ، والاعمال الصالحة الاخرى تتبع ..
وهي انما يكون صلاحها بصلاح الصلاة ..

والصلاة فريضة ليس في الدين ما هو اوكد منها .. فاذا كانت
الشهادتان في الدين اول الكلام ، فان الصلاة فيه اول العمل ..
وهي علم ، وعمل بمقتضى العلم ، وهذا ، في حد ذاته ، يجعلها
شديدة الأثر في توحيد البنية البشرية .. وحكمة مشروعيتها ترجع
الى هذا النفع الجليل .. والصلاة ، من ثم ، ليست عمل الشيوخ ،
او عمل السذج ، والبسطاء ، غير المثقفين ، كما يخيّل للشباب ، في
وقتنا الحاضر ، وانما هي عمل الانكباء ، والمثقفين ، في المكان
الاول .. وسنبذل محاولة هنا ، في هذه المقدمة ، للتعريف بهذا
الامر .. وسيتجه الحديث الى الدين ، والى الانسان ، والى
العقل ، والى وحدة البنية البشرية ، التي بها يكون الكمال الذي
ننشده جميعا ، ونخطىء الطريق اليه .. وبالله التوفيق ..

الدين ..

الدين ما هو ؟

للدن معان كثيرة .. فهو يعنى الاكراه ، ويعنى الطاعة ،
ويعنى القهر والغلبة .. هذا في مستوى .. وفي مستوى آخر ،
هو يعنى السيرة ، والنهج والمعاملة ..

ففى المعنى الاول ، ورد قوله تعالى : « افغير دين الله

يبنون ، وله اسلم من في السموات والارض طوعا ، وكرها ،
واليه يرجعون ؟ »

وفي المعنى الثانى ورد قوله تعالى : « ومن احسن ديننا ممن
اسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ؟ واتخذ
الله ابراهيم خليلا ! » والدين في هذين المستويين دينان ، بينهما
اختلاف مقدار .. ويمكن تسميتهما بالدين العام ، والدين
الخاص .. ويمثل الدين العام حلقة ، خارجية ، محيطية ، ويمثل
الدين الخاص حلقة ، داخلية ، محاطا بها ..

فاما الدين العام فهو شأن الخلائق جميعها ، واليه الاشارة
بقول الله تعالى : « تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن
فيهن ، وان من شئ الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم
.. انه كان جليلا غفورا . » وهو بذلك يعنى الارادة الالهية التى
قهرت العناصر ، وسيرت الخلائق الى مصيرها المقدور .. وعن
هذا الدين لا يشذ شاذ ، ولا يخرج عليه خارج .. ولا تتع فيه
معصية من عاص .. فليس في حقه الا الطاعة .. وفي شرعه ،
من عصى فقد اطاع ، في عين ما قد عصى .. وليس بطاعة الطائع
فيه عند الله عبرة ..

واما الدين الخاص فهو دين الجن والانس — وهو بذلك
دين العقول المكلفة بترويض الشهوة .. وهو انما سمي دين
العقول لأن في شرعه تقع المعصية .. والمعصية هى مخالفة الحكم

الشرعى فى العمل ، أو القول ، أو كليهما .. وحكمة الحكم الشرعى قائمة فى العقل الكلى القديم ، ومراد هذا الدين تسيير العقل المحدث فى طريق مرضاة العقل القديم ، ولذلك فان العبرة فى العمل فيه بالنية .. والنية هى استحضار القصد من وراء العمل فى العقل ، قبيل الشروع فى العمل ..

وحين يمثل الدين العام إرادة الله ، يمثل الدين الخاص رضوانه .. وانما يستصفى الدين الخاص ، من الدين العام ، كما يستصفى ماء الانهار ، من ماء البحار ، بفضل الله ، ثم بفضل حرارة الشمس التى بها تبخير الماء ، وتصريف الرياح ، وتسخير السحاب بين السماء والأرض .. فإله ، تبارك وتعالى ، قد ارسل رسله لاستصفاء رضوانه من ارادته ، كما سخر شمس لـ استصفاء مائه العذب ، من مائه الملح .. ومصافى الرضوان من الارادة هى العقول البشرية . ومن أجل ان تقوى هذه العقول على الاضطلاع بهذه المهمة امدها الله بالعقول الملائكية — بالوحى — بجبريل — وانما الوحى مرحلة ، ريثما تستغنى العقول عنه ، بفضل الله ، ثم بفضل تفجير الطاقة التى أودعها الله فى البنية البشرية ..

وهذا ايضا ما من أجله قلنا ان الدين الخاص هو دين العقول .. وليست هناك كرامة ترجى ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، الا والعقول طريقها ..

الانسان ..

الانسان ما هو ؟ ومن هو ؟

الانسان حيوان نزل منزلة الكرامة بالعقل .. والانسان لا يزال في طور التكوين ، ولن يكون لاستمرار تكوينه نهاية ، فهو ينتقل في منازل الكمال تنقلا سرمديا .. والحيوان ينتقل ايضا ، وقصاراه في ذلك أن ينزل ادنى منازل الانسان .. فكأن الاختلاف بين الحيوان والانسان اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع .. والتوحيد يطلب الينا أن ننظر الى جميع المخلوقات ، بله الاحياء ، كسلسلة واحدة متصلة الحلقات ، وان كان حجم الحلقات يختلف اثناء السلسلة .. ولدى هذه النظرة ، فليس في الوجود الحادث غير الانسان ، وجميع مانراه ، وما لا نراه ، عن هذا الوجود ، انما هو الانسان في اطوار مختلفة ومتتالية .. والى هذا المعنى المتكامل الاشارة بقوله تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » ومعنى « هل » هنا « قد » وهذا الحين من الدهر هو امد ممدود ، ودهر دهير .. وللانسان في هذه النشأة الطويلة اربع مراحل متصلة الحلقات ، ولا يفصل بينها الا حلقات من السلسلة ، اكبر من سابقتها ، تمثل قفزة في سير التطور .. وتمثل هذه القفزة بدورها حصيلة الفضائل العضوية التي استجمعت من خلال المرحلة السابقة .. وهذا التقسيم الى اربع مراحل انما هو لتبسيط البحث فقط : والا فان في داخل كل مرحلة ، مراحل

يخطئها العد .. وسنكمل الحديث عن هذه المراحل فيما يلي ..
المرحلة الاولى من نشأة الانسان ..

هذه تعنى تطوره فى المادة غير العضوية منذ بروزه فى الجسد .. وهو بروز فى الازل — فى بدء الزمن .. والى هذه البداية السحيقة اشار تعالى بقوله : « اولم ير الذين كفروا ان السموات ، والارض ، كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شئ حى ، افلا يؤمنون ؟ » .. الرتق ضد الفتق ، وهو يعنى الالتئام .. وعن هذا الامر المرتوق ، قال تعالى ، فى موضع آخر : « ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللارض ، ائتيا طوعا ، أو كرها . قالتا اتينا طائعين » والدخان هنا يعنى الماء ، فى حالة بخار .. فقد كانت السموات والارض سحابة من بخار الماء ، مرتتقة ، ففتقت ، وبرز التعدد من هذه الوحدة .. ولم تكن جرثومة الانسان يومئذ غائبة .. وانما كانت هى ذرات بخار الماء .. ومن يومئذ بدأ تطور الانسان العضوى يطرد ، تحفزه ، وتوجهه ، وتسيره ، وتقهره ، وتصهره ، الارادة الالهية المتفردة بالحكمة .. وقد انفق فى هذه المرحلة من مراحل النشأة أمداً يعجز الخيال تصويره .. ثم انتهت هذه المرحلة ببروز المادة العضوية ..

المرحلة الثانية من نشأة الانسان ..

وببروز المادة العضوية من المادة غير العضوية ظهرت الحياة ،

كما نعرفها نحن .. والا ، فإن جميع المادة ، عضوية ، أو غير عضوية ، حية .. وكل ما هناك ، أن الحياة بدأت تبرز في المادة العضوية ، بعد أن كانت كامنة في المادة غير العضوية .. فهي لم تجيء من خارج المادة ..

وأدنى درجات الحياة ، التي نسميها اصطلاحاً حياة ، أن يكون الحي شاعراً بحياته .. وآية ذلك أن يتحرك الحي ، حركة تلقائية ، وأن يتغذى ، وأن يتناسل .. وقد بدأت هذه الحياة بحيوان الخلية الواحدة .. وبهذه الخطوة الجلية ، والخطيرة ، افتتح عهد جديد .. عهد عظيم .. عهد الحياة والموت .. ومن يومئذ بدأ رأس سهم الحياة ، وطليعتها في السير .. يالها من بداية !! وفي ذلك قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » .. الحمأ الطين الأسود .. والحمأ المسنون الطين المتغير ، المنتن .. والصلصال الطين اليابس ، الذي يصل أى يصوت اذا لمسته .. وانما اخمومي الحمأ لانه قد طبخ بحمو الشمس .. وذلك لأن الارض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها ، واخذت تبرد ، وتجمد ، وتتهبأ لظهور الحياة عليها .. ثم ظهرت الحياة بين الماء والطين .. والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » انا خلقنا الانسان من نطفة ، امشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا » .. فان النطفة ، في هذه المرحلة من مراحل النشأة البشرية تعنى الماء الصافي .. وامشاج ، جمع

بشيج .. من مشج ، يمشج ، مشجا ، اذا خلط بين شيئين ..
وهما هنا الماء والطين .. فالنطفة الأمشاج ، هي الماء المخلوط
بالطين ..

وهذه المرحلة الثانية ، من مراحل النشأة البشرية ، التي
بدأت بحيوان الخلية الواحدة ، في القاعدة ، تنتهي عند أعلى
الحيوانات الثديية ، في القمة .. وحين تبدأ المرحلة الثالثة من
مراحل النشأة ، انما تبدأ بطفرة جديدة ، مذهلة ، بها يدخل
الانسان ، كما نعرفه اليوم ، في مسرح الحياة ..

المرحلة الثالثة من نشأة الانسان ..

هذه هي المرحلة التي نحن نعيش الآن في أخريات أيامها ،
وهي قد بدأت يوم ظهر آدم النبي — الانسان المكلف — في
الارض .. وادم هذا ، ليس هو آدم الخليفة ، الذي خلقه الله
كاملاً ، أو يكاد ، في الجنة ، واسجد له الملائكة .. وانما هو طور
من اطوار ترقى الخلقة التي انحطت عن آدم الخليفة ، نحو مرتبة
آدم الخليفة .. ذلك بأن آدم الخليفة — آدم الكامل — قد
خلق في الجنة — في الملكوت — ثم لما ادركته الخطيئة طرد من
الجنة ، واهبط الى الارض .. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى :
« فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى
اليك وحيه ، وقل رب زدني علماً » * ولقد عهدنا الى آدم ، من
قبل ، فبنسى ، ولم نجد له عزماً * واذا قلنا للملائكة اسجدوا

لآدم ، فسجدوا ، الا ابليس ، ابى * فقلنا : يا آدم ، ان هذا
عدو لك ، ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة ، فتشقى * ان
لك الا تجوع فيها ، ولا تعمري * وانك لا عظماً فيها ، ولا
تضحى * فوسوس اليه الشيطان ، قال : يا آدم هل ادلك على
شجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ * فأكلا منها ، فبدت لهما
سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم
ربه ، فغوى * ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه ، وهدى * قال :
اهبطا منها ، جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأئبنكم منى هدى
فمن اتبع هداى فلا يضل ، ولا يشقى * ومن اعرض عن ذكرى
فان له معيشة ضنكاً ، ونحشره ، يوم القيامة ، اعمى » .. وعن
طرد آدم من الجنة ، واهباطه الى الارض ، بعد خلقه فى اقرب
صورة الى الكمال . ورد القول الكريم : « لقد خلقنا الانسان
فى احسن تقويم * ثم رددناه اسفل سافلين * الا الذين
آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم اجر غير ممنون » وكان آدم ،
وزوجه ، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأنها تابا ، وندما ،
بعد الزلة ، وقالوا : « ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا ،
وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » هذا فى حين ان ابليس ، الذى
تولى اغواءهما ، لم يتب ، ولم يندم ، ولم يطلب المغفرة ، ولا
الرحمة ، وانما طلب الامهال ، والانتظار : « انظرنى الى يوم
يبعثون » فلما اجيب الى طلبه : « انك من المنظرين » ، اظهر
اصراراً على الاستمرار فى الاغواء : « فيما اغويقتنى لأقعدن لهم

صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمنهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » ولذلك لما ردوا جميعا الى أسفل سافلين ترك هو هناك ، واستنقذ الله آدم وزوجه ، وهما بايمانهما سبيل الرجعى .. فهذا معنى قوله تعالى : « الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم اجر غير ممنون » وعندما رد آدم الى أسفل سافلين كان في نقطة بدء الخليقة — في مرتبة بخار الماء — ثم بدأ سيره ، بتوفيق الله ، في مراقبى القرب ، حتى اذا بلغ مبلغ النبوة على الارض ، فكان الانسان المكلف الاول ، كان قد بدأ ينزل بصورة ، محسوسة ، اول منازل القرب من مقام الخلافة العظيمة التى فقدتها بالمعصية ، ولكنه كان لا يزال عن كمالها بعيدا .. وبنزوله هذه المنزلة الشريفة اصبح له ذكر في الملكوت ، بعد ان سقط ذكره زمنا طويلا .. وفي ذلك يقول تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ »

النبوة الاولى — خلافة الارض :

وهذه المنزلة التى نزلها آدم ، في طريق العودة من التيه ، والتى كان له بنزولها ذكر في ملكوت الله ، هى منزلة أول نبوة على هذه الارض ، وبذلك فان نازلها أول خليفة في هذه الارض .. وقد حاول نزولها قبل آدم ابو البشر اودام كثيرون ، فلم يفلحوا ، وانقرضوا ، واستمرت محاولة طلائع سلالة الطين في نزول هذه المنزلة الشريفة ، وكان الفشل لهم

بالمرصاد ، حتى اذا استقر في اذهان الملائكة انهم لن يفلخوا ،
 تأذن الله بظهور المحاولة الناجحة ، فكان آدم ابو البشر .. ولما
 آذن الله ملائكته بأنه سيجعل ، من سلالة الطين ، في الارض
 خليفة ، عارضوا : « واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض
 خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ،
 ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : اني اعلم
 ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة
 فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين * قالوا
 سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم *
 قال يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انبأهم باسمائهم ، قال : ألم
 اقل لكم اني اعلم غيب السموات ، والارض ، واعلم ما تبدون ،
 وما كنتم تكتمون ؟ » . ولقد عارض الملائكة في اتخاذ الله
 الخليفة من سلالة الطين قياسا على سابق علمهم ، المستمد من
 سابق تجاربهم مع الأوامر السابقين .. فلما كشف الله لهم كمال
 النشأة البشرية المتمثل في مقدرتها على التطور ، والترقى ،
 والخروج ، باستمرار ، من الجهل الى العلم ، اذعنوا ، وانقادوا .
 ولقد جرت جميع هذه الامور ثلاث مرات ، ثلاث مرات ..
 فأدم قد خلق ثلاث مرات : مرتين في عالم الملكوت ، ومرة في عالم
 الملك .. ذلك بان الاسماء المسيطرة على الخلق هي العالم ،
 المرید ، القادر .. فبالعلم احاط الله بمخلوقاته ، في عالم
 الملكوت ، وبالإرادة نزل بالاحاطة الى التخصيص ، فكان اقرب

الى التنفيذ ، وان لم يزل في عالم الملكوت ، ولكن مما يلي عالم الملك .. وبالقدرة نفذ في عالم الملك ، ما تمت الاحاطة به اجمالا ، وتم تخصيصه تفصيلا ، في عالم الملكوت .. فعالم الملكوت عالم العقول ، وعالم الملك عالم الاجساد .. وكل شىء في عالم الملكوت مسيطر على نظيره في عالم الملك .. لأن عالم الملكوت عالم لطائف ، وعالم الملك عالم كتائف .. ولكل لطيف سلطان على كل كثيف .. وهذا معنى قوله تعالى : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء » ، واليه ترجعون » .. وانما ترجع كتائفنا الى لطائفنا ، وذلك بخضوع نفوسنا ، وهى كتائف ، لعقولنا ، وهى لطائف .. وقمة اللطائف فى ذات الله ، ومن ثم وجب الرجوع اليه تعالى ، وانما يكون الرجوع بتقريب صفاتنا من صفاته ، وذلك بفضل مدركات العقول المرتاضة بادب الحق ، وادب الحقيقة ..

نشأة العقل ..

العقل هو القوة الدراكة فينا .. وهو لا يختلف عن الجسد اختلاف نوع ، وانما يختلف عنه اختلاف مقدار .. فالعقل هو الطرف اللطيف من الحواس .. والحواس هى الطرف اللطيف من الجسد .. وانما بصهر كتائف الجسد ، تحت قهر الارادة الالهية ، ظهرت لطائف الحواس ، ثم لطائف العقول .. ولقد امتازت هذه المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان بظهور العقل .. ولم يكن العقل غائبا عن المرحلة الاولى ، والمرحلة الثانية ، من مراحل النشأة ، ولكنه كان كامنا كمون

النار في الحجر ، ثم سحب بروزه ، من الكمون الى حيز
المحسوس ، هذه المرحلة الثالثة .. وعن حركة بروز العقل ،
ووسيلة بروزه ، يخبرنا الله تبارك وتعالى ، فيقول : « انا خلقنا
الانسان من نطفة ، امشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا *
انا هديناه السبيل ، اما شاكرا ، واما كفورا » .. فالنطفة
الامشاج تعنى الماء المخلوط بالطين ، وذلك عند ظهور الحياة
بالمعنى الذى نعرفه ، وهذا يؤرخ نهاية المرحلة الاولى ، من
مراحل نشأة الانسان ، وبداية المرحلة الثانية .. ولا تزال
الحياة ، في القاعدة ، تستمد من هذا المصدر .. ثم اخذت الحياة
تلد الحياة ، بطريقة ، أو باخرى ، وذلك في مراحلها الدنيا ، وقبل
ان تتطور ، وتتعدد ، وتبرز الوظائف المختلفة ، للأعضاء ،
وللأنواع .. وقبل ان تبرز الانثى بشكل مستقل عن الذكر ..
وتمثل هذه الحقبة طرفا من المرحلة الثانية من مراحل نشأة
الانسان .. ثم عندما ارتقت الحياة ، وتوظفت الوظائف ،
اصبحت الحياة تجيء من التقاء الذكر بالانثى ، واصبحت
النطفة الامشاج تعنى ماء الفحل ، المختلط ببويضة الانثى ..
وكل السر في عبارة « نبتليه » ، لأنها تشير الى صهر العناصر
في الفترة التى سبقت ظهور المادة العضوية .. وتشير الى صراع
الحى مع بيئته الطبيعية ، بعد ظهور أول الأحياء ، والى يوم
الناس هذا .. « فجعلناه » نتيجة لهذا الابتلاء ، والبلاء ،
« سميعا بصيرا » إشارة الى بروز الحواس في الحى ، الواحدة

تلو الاخرى .. وبعد ان اكتملت الحواس الخمس ، واصبح
 الحى حيواناً سوياً انختمت المرحلة الثانية من مراحل النشأة
 البشرية ، وبدأت المرحلة الثالثة ، وذلك ب بروز لطيفة اللطائف —
 العقل — والى ذلك الاشارة بالآية السابقة « انا هديناه السبيل ،
 اما شاكرأ ، واما كفورا . » .. « اما شاكرأ ، واما كفورا »
 تعنى انا هديناه الى الشكر عن طريق الكفر ، أو قل الى الصواب ،
 عن طريق الخطأ .. واليه أيضا الاشارة بقوله تعالى : « ألم
 نجعل له عينين ؟ * ولسانا وشفتين ؟ * وهديناه النجدين ؟ »
 .. قوله : « ألم نجعل له عينين ؟ » اشارة الى الحواس جميعها
 .. قوله « ولسانا وشفتين ؟ » اشارة الى العقل .. فانه هنا لم
 يعن باللسان مجرد الشريحة المقدودة من اللحم ، والتي يشارك
 الانسان فيها الحيوان ، وانما اشار باللسان الى النطق باللغة ،
 ولذلك ذكر الشفتين لكانهما من تكوين الاصوات المعقدة ،
 المختلفة التى تقتضيها اللغة .. واللغة ترجمان العقل ، ودليله
 .. ثم قال : « وهديناه النجدين » .. أصل النجد ما ارتفع من
 الارض .. وهو هنا الطريق المرتفع .. و « النجدين »
 الطريقين : طريق الخطأ ، وطريق الصواب .. ولقد هدى الله
 الانسان الطريقين .. فهو يعمل ، فيخطئ ، فيتعلم من خطئه ..
 وحين هدى الله الانسان النجدين ، لم يهد الثلاثكة الا نجداً
 واحداً ، وهو ايضا لم يهد الشياطين الا نجداً واحداً .. وذلك

ان الله ، تبارك وتعالى ، خلق شهوة بغير عقل ، وركبها في
 الشياطين ، ومن قبلهم ، الى اعلى الحيوانات ، ما خلا الانسان ،
 فهم يخطئون ، ولا يصيبون .. وخلق عقولا بلا شهوة ، وركبها
 في الملائكة ، فهم يصيبون ، ولا يخطئون .. ثم جعل الانسان
 برزخاً ، تلتقى عنده النشأتان : النشأة السفلية ، والنشأة
 العلوية ، فركب فيه الشهوة ، وركب فيه العقل ، وامره ان
 يسوس شهوته بعقله .. فهو في صراع ، لا يهدأ ، بين دواعي
 الشر ، ودواعي الخير .. وبين موحيات الخطأ ، وموجبات
 الصواب .. فذلك معنى قوله ، تبارك وتعالى ، « وهـديناه
 النجدين » .. وهذه النشأة « البرزخية » التي جمعت بين الخطأ
 والصواب هي التي جعلت مطلق بشر اكمل من مطلق ملك ..
 ولما كان عزتها قال المعصوم : « ان لم تخطئوا ، وتستغفروا ،
 فسيأت الله بقوم يخطئون ، ويستغفرون ، فيغفر لهم .. » ..
 وعزة هذه النشأة في مكان الحرية فيها .. لأن حق الخطأ هو
 حق حرية ان تعمل ، وتخطيء ، وتتعلم من خطئك كيف تحسن
 التصرف في ممارسة حريتك ، بغير حد ، الا حداً يكون منشأه
 عجزك عن حسن التصرف .. وذلك عجز مرحلي ، لن تلبث ان
 تخرج منه الى قدرة اكبر على حسن التصرف ، وهكذا دواليك ..
 والحرية هي روح الحياة .. فحياة بلا حرية انما هي جسد
 بلا روح .. ويكفى ان نقول ان الحرية هي الفيصل بين حياة
 الحيوان ، وحياة الانسان .

وفي بدء الحياة كان الشعور • وادنى درجات الحياة ان
يشعر الحى بوجوده •• وليس فيما دون هذا الشعور حياة ••
ويوجب هذا الشعور بالوجود احساس الحى بالحر ، وبالبرد ،
وبالآلم •• وجاء من هذا الاحساس الحركة للفرار من الحر
المضر ، ومن البرد المضر ، ومن كل ألم ، وإلى كل لذة ممكنة ••
وبوحى من الفرار من الألم ، والسعى في تحصيل اللذة ، جاءت
القدرة على تحصيل الغذاء ، والالتذاذ به ، وجاءت القدرة على
التناسل ، والالتذاذ به •

وكان حيوان الخلية الواحدة يحس بكل جسده الرخو ، ثم
تعمدت الحياة ، وارتقت ، ورهف احساسها بالخطر الذى
يتهددها ، فظهرت الحاجة الى الوظائف المختلفة ، فكان على الجلد
ان يتكثف ، ويغلظ ، ليكون درقة ، ودرعا ، وكان على بعض
اجزاء الجسد ، غير الجلد ، ان تقوم بوظيفة الحس •• وهكذا
بدأ نشوء الحواس •• ونحن ، لطول ما ألفنا الحواس الخمس
نتورط فى خطأ تلقائى ، اذ نظن ان الاحياء قد خلقت وحواسها
الخمس مكتملة •• والحق غير ذلك •• فان الحواس نشأت ،
الواحدة ، تلو الاخرى ، كلما ارتقت الحياة ، وتعمدت وظائف
اعضاء الحى •• ففى البدء كان اللمس بالجسم كله — بالجلد —
ثم لما توظف الجلد فى الوقاية ، خصصت بعض الاجزاء لللمس
•• ثم ارتقت وظيفة الحس لما احتاج الحى لللمس ، والخطر على
البعد ، فامتدت هذه الوظيفة ، امتدادا لطيفا ، فكان السمع ،

ثم كان النظر ، ثم كان الذوق ، ثم كان الشم .. وليس هذا ترتيب ظهور الحواس ، ولا هو ترتيب اكتمال .. فان بعض الاحياء يحتاج لحاسة معينة اكثر من احتياجه للآخرى ، فتقوى هذه على حساب اولئك ، مع وجود الآخرى ، بصورة من الصور ..

والآن ، فان الحيوانات العليا ، بما فيها الانسان ، ذات خمس حواس .. وليس هذا نهاية المطاف .. فان ، في الانسان ، الحاسة السادسة ، والحاسة السابعة في اطوار الاكتمال ، ولا يكون ، بعد الحاسة السابعة ، تطور في زيادة عدد الحواس ، وانما يكون تطور في كمالها .. وهذا لا ينتهى ، وانما هو سرمدى ..

ما هي الحاسة السادسة ؟؟

هي الدماغ .. ووظيفتها الادراك المحيط ، والموحـد (بكسر الحاء) لمعطيات الحواس الأخرى - اليد ، والاذن ، والعين ، واللسان ، والانف - في الحس ، والسمع ، والبصر ، والذوق ، والشم .. فاذا قويت يكون ادراكها لكل شئ عظيم الشمول ، فلكانها تحسه ، وتسمعه ، وتراه ، وتذوقه ، وتشمه ، في آن واحد ..

ما هي الحاسة السابعة ؟؟

هي القلب .. ووظيفتها الحياة .. وهذه الحاسة هي الاصل ،

وجميع الحواس رسلها ، وطلائعها ، الى منهل الحياة الكاملة ..
ولقد نشأت الحياة وسط الخوف .. قال تعالى في ذلك :
« لقد خلقنا الانسان في كبد » والكبد المشقة ، ولقد دفعت هذه
المشقة ، التي وجدت الحياة نفسها محاطة بها ، الخوف في اعماق
الاحياء .. ولولا الخوف لما برزت الحياة ، في المكان الاول ، ولما
ارتقت وتطورت ، في المكان الثانى .. ثم هى ان لم تنتصر على
الخوف ، في آخر المطاف ، لا يتم كمالها .. وانما تنتصر الحياة
على الخوف عندما تقوى الحاسة السادسة ، وتدرك الامر على
ما هو عليه ، على النحو الذى وصفنا ، ويومئذ سيظهر لها ان
الخوف انما هو مرحلة صحبت النشأة في ابان جهلها ، وقصورها ،
وانه ليس هناك ما يوجبها في حقيقة الاشياء .. فاذا بلغت
الحاسة السادسة هذا المبلغ ، انبسطت الحاسة السابعة -
القلب - واطمأنت ، وانطلقت من الانقباض الذى اورثها اياه
الخوف ، واخذت تدفع دم الحياة قويا الى كل ذرات الجسد ،
وكل خلايا الجلد ، تلك التى كان الخوف قد حبرها ، وجعل منها
درقة ، ودرعا ، لصيانة الحياة البدائية .. وبذلك يعود الشعور
لكل الجسد ، ويصبح حيا كله ، لطيفا كله ، جميلا كله ، غاية
الجمال .. وتكون ارض الجسد الحى يومئذ هى المعنية بقوله
تعالى : « وترى الارض هامدة فاذا افزلنا عليها الماء اهتزت ،
وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج » ..

هذه هي وظيفة الحاسة السابعة — الحياة الكاملة — وليس للحياة الكاملة نهاية كمال ، وانما كمالها ، دائما ، نسبي .. وهي تتطور ، تطلب الحياة المطلقة الكمال ، عند الكامل المطلق الكمال — عند الله — وانما يكون تطورها باطراد ترقى جميع الحواس ، كل في مجاله ، وانعكاس ذلك على ترقى العقل ، بقوة الفكر ، وشمول الادراك .. وعلى قدر صفاء العقل ، وقوة الفكر ، تكون سلامة القلب ، واتساع الحياة ، وكمالها .. وهذا التطور المترقى بالحواس هو ما عناه الله تعالى بقوله « وانبتت من كل زوج بهيج » ..

لقد وصلنا باستقرائنا لنشأة العقل ، وتطوره ، الى المرحلة الرابعة من مراحل نشأة الانسان . وخصنا فيها ، بعض الخوض ، ونحن لم نفرغ بعد من الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان ، وسنبتوقف هذا الاستقراء لتحدث قليلا عن المرحلة الرابعة ، ثم نعود ، من جديد ، الى مواصلة الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان ، لانها اهم النشآت الاربع ..

المرحلة الرابعة من نشأة الانسان

هذه المرحلة هي مرحلة الكمال ، وهي لما تات بعد .. وبدايتها ارفع من نهاية المرحلة الثالثة . ، ولا يدخلها الداخل الا بقفزة من قمة منازل هذه المرحلة ..

لقد تحدثنا عن المراحل الاربع من نشأة الانسان .. تحدثنا عن المرحلة الاولى ، فقلنا : ان بدايتها في الازل ، حيث برز الانسان في الجسد ، في المادة غير العضوية — تلك التي نسميها ، اصطلاحا ، ميتة — ونهايتها عند دخول المادة العضوية في المسرح ..

وتحدثنا عن المرحلة الثانية ، وقلنا : ان بدايتها عند ظهور المادة العضوية — تلك التي نسميها ، اصطلاحا ، حية — ونهايتها عند ظهور العقل .. ويتضح لنا ، من هذا ، ان السببه كبير بين المرحلتين : الاولى ، والثانية ، فهما معا مرحلة الجسد الصرف ،

على اختلاف مستوياته ، من ذرة بخار الماء ، وإلى أعلى الحيوانات
التيديّة ، ما خلا الإنسان ..

وأما المرحلة الثالثة فهي تتميز عن المرحلة الثانية ببروز العقل
من الجسد ، وهو عنصر جديد ، وخطير ..

وأما المرحلة الرابعة فهي تتميز من المرحلة الثالثة بدخول
الحاسة السادسة ، والحاسة السابعة ، في المسرح ، وتلك درجة
جديدة ، من درجات الترقى ، تصبح بها الحياة البشرية شيئا جديدا ،
مختلفا عما افنا من قبل .. ولذلك فانا نستطيع ان نقول : ان لدينا
ثلاث مراحل لنشأة الإنسان : مرحلة الجسد الصرف ، ومرحلة
الجسد والعقل المتنازعين ، وأخيرا مرحلة الجسد والعقل المتسقين
.. ولقد تطورت ، إلى الآن ، الحياة على هذا الكوكب في مضمار
المرحلتين : الأولى والثانية : فهي قد كان تطورها الأول تطورا
عضويا صرفا ، ثم لما بدأ بروز العقل ، بفضل الله ، ثم بفضل
التطور العضوي الصرف ، أخذت في تطورها الثاني ، وهو تطور
عضوي — عقلي .. وهذا الطور هو الذي نعيشه نحن الآن ، واني
لأرجو ان نكون انما نعيش في أخريات أيامه .. وسيجيء يوم ،
قريبا ، يصبح التطور فيه عقليا صرفا ، في مقابلة البداية بالتطور
العضوي الصرف ، ذلك الذي كانت به بداية الحياة .. واصحابنا
الضوفية يقولون : النهاية تشبه البداية ، ولا تشبهها .. والمؤرخون
يقولون : التاريخ يعيد نفسه ، ولكنه لا يعيدها بنفس الصورة ..
واحكم القائلين يقول : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ،
انا كنا فاعلين » .. وهو تبارك وتعالى ، لا يعيده بنفس الصورة ،
لانه من اسرار الألوهية ، انها لا تقف ، ولا ترجع ، ولا تكرر
نفسها .. فلم يبق الا ما قلنا ..

وهذه المراحل الثلاث : مرحلة التطور العضوي الصرف ،
ومرحلة التطور العضوي — العقلي ، ومرحلة التطور العقلي

الصرف .. يمكن التعبير عنها ، بلغة الدين ، بأنها تقابل العوالم الثلاثة : عالم الملك ، وعالم البرزخ ، وعالم الملكوت .. فاما عالم الملك فهو عالم الاجساد ، واما عالم الملكوت فهو عالم العقول ، واما عالم البرزخ فهو عالم المنزلة بين المنزلتين — عالم مرحلي — وهذا هو عالم الانسان الحاضر ، الذي نعيش نحن الآن في اخريات اطواره ، كما سلفت الى ذلك الاشارة ..

وعالم الملكوت مسيطر على عالمي الملك ، والبرزخ ، فهما تحت قهره ، وحركتهما دائبة في طلبه ، لانهما انما عنه صدرا ، وقمة الملكوت عند الله ، في صرافة ذاته ، وعن ذلك قال تعالى : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، واليه ترجعون » .. وقد سلفت الى ذلك الاشارة ..

ولقد خلق الله كل شيء بالذات ، ثم خلق بالواسطة ، وهي الأسماء والصفات والانفعال .. وقد اقتضت حكمته ان يبرز خلقه الى حيز الوجود بثلاث حركات : حركة العلم بالاحاطة ، وحركة الارادة بالتخصيص ، وحركة القدرة بالابراز الى عالم المحسوس .. وهو في عالم البرزخ قد خلق بثلاثة اسماء : « العالم المريد القادر » .. وهو ، في عالم الملكوت ، وهو يلي عالم البرزخ من اعلى ، قد خلق بثلاثة اسماء : « الله الرحمن الرحيم » .. وهو ، في عالم الملك ، وهو يلي عالم البرزخ من أسفل ، قد خلق بثلاثة اسماء : « الخالق البارئ المصور » ..

ومعنى الخالق الذي احاط بمخلوقاته علما ، ومعنى البارئ الذي اعطى خلقه الصورة الاولى ، ومعنى المصور الموالى تغليب الصورة الاولى من خلقه في الصور المختلفة سيرا في مراقي التطور حيث يطلب الاخير كمال الاول .. وفي هذا المعنى قال تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم ، فسجدوا ، الا ابليس ، لم يكن من الساجدين » فهنا « خلقناكم »

تعنى احطنا علما ببداياتكم ، ونهاياتكم .. و « سورناكم » تعنى اعطيناكم الصورة الاولى ، وهى ذرة بخار الماء .. واما قوله تعالى : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » تعنى سخرنا الملائكة فى خدمة البشر ، وذلك لمكان كرامة النشأة البشرية على الملائكية .. وهو ، تبارك وتعالى انما عطف بالحرف « ثم » ليفيد الترتيب ، والتراخى فى الزمن ، والملائكة سجدوا ، وابليس ايضا سجد ، ولكن الملائكة سجدوا « طوعا » وابليس سجد « كرها » والفرقان ، على سواء ، مسخران للبشر .. فاما الملائكة فمن اعلى ، واما ابليس ، وذريره ، فمن اسفل ، ويتراجع البشر بين الاثنين بحىء الصواب ، والخطا .. وكلا الصواب والخطا لمصلحة تطور الانسان الى الكمال .. لان بهما ، من البداية ، تم كمال النشأة ..

وفى اعلى معانى التطوير فى اختطاط البداية ، والنهاية ، وفى التسير ، بين البداية ، والنهاية ، جاء قوله تعالى : « اعطى كل شئ خلقه ، ثم هدى » يعنى هدى الله التطور فى مراقبه .. فاما التطور العضوى الصرف ، فهده بالدين العام .. واما التطور العضوى — العقلى ، فهده بالدين الخاص — « مرحلة العقيدة » .. واما التطور العقلى الصرف ، فهده بالدين الخاص — « مرحلة العلم » .. ولتبيين هداية الدين الخاص ، بمرحلتيه ، للتطور العضوى — العقلى ، وللتطور العقلى الصرف ، نعود لمواصلة الحديث عن المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الانسان ، كما وعدنا ، وستكون لنا عودة الى الحديث عن المرحلة الرابعة ، ايضا ، حين يمس الحديث التطور العقلى الصرف .

عودة للمرحلة الثالثة من نشأة الانسان

قلنا ان هذه المرحلة تبدأ بمرور العقل فى الانسان ، وقلنا ان العقل لم يكن غالبا عن المرحلتين الاولى ، والثانية ، من مراحل

نشأة الإنسان ، (وهما معا قد اسميناهما بمرحلة التطور العضوى
 (الصرف) .. العقل لم يكن غائبا ، وانما كان كامنا فى المادة ،
 فمخضته الحوادث حتى برز الى حيز الوجود .. وقد تحدثنا عن
 نشأة العقل ، بشئ من التفصيل ، لا نحتاج الى اعادته هنا ..
 ولكننا ، مع ذلك ، لابد لنا من الحديث عن العقل بشئ من التحديد
 لم يظفر به حديثنا السالف عن نشأة العقل .. قلنا ان آدم ، بعد
 ان اقصى الى مقام البعد — مقام اسفل سافلين — استنقذه الله
 بالتوبة عليه ، فآخذ فى طريق الرجعى ، فقطع المرحلة الاولى من
 مراحل نشأته ، وقطع المرحلة الثانية ، ايضا ، ودخل المرحلة
 الثالثة ، وفى هذه نزل منزلة اول نبوة فى الارض ، وفى هذه المنزلة
 اعتبر خليفة ، وجرى فى شأته حوار الملائكة مع ربهم ، ولكنهم
 اقتنعوا به فى آخر الامر ، وسجدوا له .. وقد حصلت له من هذا
 المقام نكسة ، وجرى عليه الاقصاء ، ولكن بصورة اخف من تلك
 التى جرى فيها اقصاؤه من عالم الملكوت الى اسفل عالم الملك ..
 ان منزلة النبوة التى نزلها آدم ، وهو فى طريق العودة من
 البعد ، لم تكن اول نبوة ، على الاطلاق ، ولكنها كانت اول نبوة
 ناجحة .. وآدم نفسه ، على الارض ، قد كان مسبقا باوادم
 كثيرين .. فهو ليس اول آدم ، على الاطلاق ، ولكنه اول تجربة
 نجحت ، من تجارب الاوادم الكثيرين .. ومعارضة الملائكة ، حين
 قالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟ » لم تكن على
 غير وجه من وجوه الصحة ، ولكنها كانت مبنية على تجربة محدودة
 مع بعض نماذج من سلالة الطين — مع بعض الاوادم — فلما ابان
 لهم الله كيف ان اطراد التنصين فى اطراد هذه السلالة لا يقف عند
 حد ، وان التقصن فى اطرادها انما هو مرحلة للتقصن ، وادعنوا ،
 وسجدوا .. وكان الاوادم السابقون لانتم ابيه البشر الحاضرين ،
 كلما وضعوا موضع القبالة ، فانهطوا عنها ، عوقبوا بالوان

الاقصاء .. وكانت ظاهرة الاقصاء المتواترة ، الانقراض ، مع استخلاص افراد يكون لهم على معاصريهم ميزة ، ولكنها ميزة غير كافية لارساء التجربة المبتغاة ، في الحكمة ، منهم .. ولنا فيما جرى لقوم نوح نموذج صريح ، مع ان هؤلاء قد جاءوا في وقت متأخر كثيرا ..

ثم ان صور اقصاء الخلفاء ، المقصرين عن شأو الخلافة ، قد لطفت ، بمحض اللطف الالهي ، فلم تعد الانقراض الحسى ، وانما اصبحت في صورة « السلب بعد العطاء » ، والسقوط من مقام القرب بالمعرفة بالله ، الى مقام البعد بالجهل بالله .. ولنا في ذلك نموذج ، فيما قص الله علينا ، من خبر احد العارفين ، من المتأخرين ، وذلك حيث يقول ، قبارك من قائل : « وائل عليهم نبا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين » * ولو شئنا ، لرفعناه بها ، ولكنه اخلد الى الارض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، او تتركه يلهث .. ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا .. فاقصص القصص ، لعلهم يتفكرون » هذه هي صورة الاقصاء ، التي سبقت زلة آدم .. ثم ان هذه الصورة نفسها قد لطفت ، بمحض اللطف الالهي ، فاصبحت ابعاداً مؤقتة ، تعقبه توبة ، ثم مغفرة ، ثم تقرب بعد ابعاد .. وهذا هو الذي جرى لآدم ، فان اقصاءه الثاني لم يكن بعيداً وانما كان البعيد اقصاءه الاول ، وفي هذا جرى العتاب : « وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة ؟ وقل لهما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا ربنا ظلمنا انفسنا » وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » وهما انما قالا ذلك بالهام الله اياهما .. وهو تعالى لم يكن ليلهمهما الاستغفار الا وهو يريد ان يغفر لهما .. وقد فعل .. فكانت زلة آدم هنا موجبة لبعد قريب ، وقد عاد منه للقرب وكان شيئاً من البعد لم يكن .. ولنا فيما جرى لموسى ، وهو ليس بعيداً من آدم ابيه ، ما يدل على سرعة الرجعى بالمغفرة ، حين يبسر الله

الاستغفار من الذنب : « ودخل المدينة ، على حين غفلة من اهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعة ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعة ، على الذي من عدوه ، فوكزه موسى ، فغضب عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو ، مضل ، مبين * قال رب ، انى ظلمت نفسى ، فاعقر لى ، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم * قال رب ، بما انعمت على ، فلن اكون ظهيرا للمجرمين » .. ثم لم يزل عقاب المخالفين ، من المصطفين ، يلفظ ، بمحض اللطف الالهى ، حتى انتهى ، على عهد الحبيب الاعظم ، الى ان يقدم الله المغفرة قبل العقاب .. قال تعالى لحبيبه محمد : « عفا الله عنك ، لم اذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين ؟ » ..

الدين قبيل آدم

آدم صاحب اول نبوة اكتملت فى الارض ، وهو ابو البشر الحاضرين ، كان اول من استقام على التوحيد ، فى جملة احواله ، وكان دين التوحيد قد اوحى اليه من الله بواسطة جبريل .. ولم تكن تلك اول مرة يتصل فيها جبريل بالبشر ليوحى اليهم ، فقد كانت له اتصالات بتجارب الاوادم الفاشلة ، التى سبقت التجربة الناجحة بآدم ابى البشر الحاضرين ..

ان ظهور آدم النبى .. آدم الخليفة ، آدم ابى البشر الحاضرين ، لم يؤرخ ظهور العقل البشرى ، وانما هو يؤرخ مرحلة من مراحل سير العقل البشرى الى النضج .. ولقد ظهر العقل البشرى قبل آدم هذا بزمان طويل .. والعقل البشرى هو الروح الالهى الذى نفخه الله فى البنية البشرية ، فاضنبت ، بفضل ، مشدودة الى الله ، بعد ان كانت ، قبلا ، مشدودة الى الارض بحكم الحيلة .. وعن نفخ الروح الالهى فى البشر قال تعالى : « واذا قال

ربك للملائكة انى خالق بشرا ، من صلصال ، من حما مسنون * فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين » . .

ان من اهم العبارات التى حوتها هاتان الآيتان الكريمتان عبارة « فاذا سويته » ، فانها تشير الى استعداد المكان لنفخ الروح الالهى فيه ، وهذا الاستعداد قد استغرق زمنا هو من الطول بحيث يخطؤه التصور . . ويكفى ان نستحضر فى عقولنا ان الله ، سبحانه وتعالى ، سماه « حيناً من الدهر » . . قال تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » . . فان استعداد الانسان لنفخ الروح الالهى استغرق المرحلة الاولى ، من مراحل النشأة ، واستغرق المرحلة الثانية ، واستغرق ، من المرحلة الثالثة ، طورا كبيرا . . ولم يكن نفخ الروح الالهى فى آدم الخليفة وحده ، وانما هو سار فى جميع نراى الوجود مسرى الارواح فى الاجساد ، ولكنه فى الانسان زاد فى المقدار ، وفى آدم الخليفة اطرده ازدياده اكثر من ذى قبل ، حتى رفعه الى درجة النبوة ، والخلافة ، وحفظه فيهما . . ونفخ هذا الروح فى الانسان ، قبل آدم ابى البشر ، كان من قبيل اعداد المكان ، فى آدم ، لنفخ الروح الذى به النبوة ، والخلافة . . وعند نفخ الروح الالهى فى الانسان ، السابق لآدم ، وقع تمييزه على الحيوان ، ووقع عليه بذلك تكليف العبادة ، فى مستوياتها البسيطة ، وكانت من ثم بداية الدين . . ولم يكن لهذا الدين رسل غير بدائه العقول . . وكان وثنيا ، تعدديا ، ولكنه كان بداية الدين . . بداية الاسلام . . ولما جاء عهد الرسل ، الذى انفرع بظهور آدم ابى البشر ، لم تكن الحكمة وراء ارسال الرسل ان يظفروا الخاس بان لهم خالقا ، فان ذلك قد سبقتهم عليه رسل العقول ، وانما كانت الحكمة من ارسالهم تعليم الناس طريق معرفة خالقهم . .

وفى مرحلة التطور العنصرى الصرف اعد الله الانسان اعدادا

خاصا ، فهو لم يجعله قويا ، قوة جسدية ، تغنيه عن الحيلة في حل المشاكل التي تعترضه ، في البيئة التي اوجده فيها ، ولم يجعله رخوا ، خائرا ، لا يقوى على النهوض في وجه التجدي المعقول ، وانما جعله وسطا ، ذا قوة لا تغنى عن اصطناع الحيلة ، ولا تعجز عن تنفيذ خطة الحيلة ، في كثير من الاوقات . ومن هذا الوزن الحكيم برز العقل ، واصبح الانسان يحتال بعقله ، وينفذ بعضه ، وقوة تركيبه البدنى . وبهذه الممارسة دخلت مرحلة التطور العضوى — العقلى في المسرح ..

وخلق الله آدم على صورته ، تبارك ، وتعالى ، وخلق الكون كله على صورة آدم .. وخلق الله آدم له ، تبارك وتعالى ، وخلق الكون كله لآدم ، ونفخ الله روحه في آدم ، ونفخ روح آدم في الكون .. وكان نفخ روح الله في آدم في قمة ، ونفخه في الكون في قاعدة .. والنفخ كله مستمر ، ولكنه يتصعد في طريق لولبى ، يدور على نفسه دورة كاملة كلما رقى سبع درجات من درجات تصاعده ، وتعلو نقطة نهاية الدورة فوق نقطة بدايتها سمّا ، به تكون قفزة في الترقى نحو الله .. ويدور هذا الطريق اللولبى حول مركز ينضم نحوه كلما صعد درجة .. فاذا ما انتهت دورة هذا النفخ في الدرجة السابعة ، بدأت من جديد ، واتخذت درجة النهاية هذه نقطة بداية للدورة الجديدة ، وهكذا دواليك ، الى نهاية السرمد — وليس للسرمد نهاية — فيكون ، بذلك ، النفخ غير متناه ..

وعن نفخ الروح الالهى في البنية البشرية بهذه الاطوار السبعة يحدثنا تبارك وتعالى فيقول : « لقد خلقنا الانسان من سلاله من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله ، احسن الخالقين » .. وعن نفخ الروح ، في بنية الكون ، بهذه الاطوار السبعة ايضا يحدثنا ، تبارك وتعالى ، فيقول : « ان ربكم الله الذى خلق

السموات ، والارض ، في ستة ايام ، ثم استوى على العرش ،
يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ،
مسخرات بامره ، الاله الخلق ، والامر ، تبارك الله ، رب
العالمين » .

وهو عندما قال : « ثم استوى على العرش » انما ذكر الطور
السابع من اطوار النفخ ..
السلالة ما استل من الشيء ، وهو ما استخرج برفق ، وفي اناة ،
وهو الخلاصة .. وهى ايضا تعنى النسل ، وتعنى الولد .. تقول :
هو سلالة طيبة ، او تقول : هو من سلالة طيبة .. ولقد استغرق
استلال هذه السلالة من الطين زمنا سحيقا ، كما اسلفنا الى ذلك
الاشارة ..

وبعد اتمام استلال هذه السلالة ، واستعداد المحل لنفخ الروح
الالهى — وذلك بظهور الحيوانات العليا — ظهر ، بفضل الله ،
الانسان . واستمر تناسله ، وزيادته ، من يومئذ ، بالتقاء ذكره
بانثاء . واصبحت « النطفة الامشاج » هنا ، تعنى ماء الرجل
المخلوط ، فى الرحم ، ببويضة المرأة .. فذلك قوله « ثم جعلناه
نطفة فى قرار مكين » .. وقوله « ثم انشأناه خلقا آخر » ، بعد ان
فكر اطوار التكوين المختلفة فى الرحم ، يعنى ظهور النشأة السوية
التي يختلف فيها الانسان عن الحيوان ، ظاهرا ، وباطنا .. وظهور
هذه النشأة انما يكون بقفزة تمثل حصيلة التنقل فى المراقى ، التي
استجمعت فى الاطوار الستة السابقة ، كما سلفت الى ذلك الاشارة
.. وفى جميع هذه الاطوار ، النفخ الالهى مستمر ، لا يتوقف ، ولن
يتوقف ، يد الدهر ..

وعن نفخ الروح فى بنية الكون فى الايام السبعة ، تحدثنا التوراة
ايضا فتقول : « فاكملت السموات والارض وكل جندها . وفرغ
الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع

من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقديسه ..
لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً « ووصفه
الله هنا بالحاجة للراحة ، بعد العمل ، ضرب من تصوره على
صورتنا .. وتلك مرحلة ضرورية ، من مراحل تطور معرفة الانسان
بالله ، وهى مرحلة تعتبر كاملة اذا ما قورنت بالمراحل التى سبقتها ،
وانما يظهر نقصها عند مقارنتها بالصور اللاحقة ، من صور المعرفة
بالله ، وذلك حين تقدم الفكر البشرى ، وارتقى ..

وفى هذا الباب يجىء تعبير القرآن ، فى الرد على تعبير التوراة ،
فيقول جل من قائل : « ولقد خلقنا السموات والارض ، وما بينهما ،
فى ستة ايام ، وما مسنا من لغوب » وهذا بالطبع تصور بالله اليق ،
وادخل فى المعرفة ، من تعبير التوراة .. ومع ذلك فان عبارة
التوراة : « فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل »
ليست عبثاً .. وهى قد جاءت فى مقابلة « ثم استوى على العرش »
من عبارة القرآن .. وفى مقابلة « ثم انشأناه خلقاً آخر » من عبارة
القرآن ايضا .. وكل هذه العبارات ، على تفاوت ، تشير الى
تتويج الخليفة ، بعد الطور السادس ، بظهور الخليفة — الانسان
الكامل — وبظهور الانسان الكامل تنتهى المعاناة ، وينتهى الشقاء ،
وتتم الطمأنينة بالقرب وبالسلام ..

وليست ايام الله كايامنا ، وانما هى اطوار تجلياته ، وظهوره
لخلقه ، بخلقه .. اعنى ظهور امره (والامر باطن) ، فى خلقه
(والخلق ظاهر) ، لخلقه ، وهم اصحاب العقول — البشر — وهو ،
تبارك وتعالى ، يعنى هذا حين قال ، من الآية السابقة ، : « ثم
استوى على العرش ، يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس ،
والقمر ، والنجوم ، مسخرات بامره ، الا له الخلق ، والامر ،
تبارك الله ، رب العالمين » .. فالعرش يعنى المخلوقات ، بما فيها
الارواح المشرقة ، اللطيفة ، وهو عالم الخلق ، وقد عبر عنه بالليل
والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .. واشار بالليل والنهار

الى الارض ، (كما اشار بهما الى الحركة ، والى الزمن) ، لانهما
من اوضاعها من الشمس .. وعبارة « ثم استوى على العرش »
تشير الى استيلاء القهر الارادى على نواصى المخلوقات .. وقد
ابان ذلك بقوله « مسخرات بامر » وذلك عالم الامر .. والامر
مستول على الخلق .. والله ، تبارك وتعالى ، الخلق والامر ..
وهذا الاستيلاء هو نفخ الروح الالهى فى الكون ، وقد وقع على

سبع درجات ، عبر عنها بسبعة ايام ..
ثم ان الله ، تبارك وتعالى ، سخر الكون لنفخ الروح الالهى فى
الانسان ، وذلك باغراء العداوة بين الاحياء فيما بينهم ، من طرف ،
وبين الاحياء والعناصر الاخرى ، من طرف آخر .. فقال « ان من
ازواجكم ، واولادكم ، عدوا لكم ، فاحذروهم » .. وقال « ان
الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا » وكذلك خلق الانسان وسط
العداوات .. « لقد خلقنا الانسان فى كبد » ثم كان عليه ان يسعى
للمصالحة ، والمسالة ، والمحبة .. من اجل حياته ..

ولما كان الانسان الاول قد وجد نفسه ، فى البيئة الطبيعية التى
خلقه الله فيها ، محاطا بالعداوات من جميع اقطاره ، ولما كان الله
قد سواه وسطا ، فلا هو بالقوى ، الذى يستغنى بقوة عضلاته عن
استعمال حيلته . فى حل مشاكله ، ولا هو بالضعيف ، الرخو ،
الخائر ، الذى لا ينهض لآى مستوى ، من مستويات تحدى
الاعداء فانه قد سار فى طريق « الفكر والعمل » ، من اجل
الاحتفاظ بحياته وقد هداه الله بعقله ، وقلبه ، الى تقسيم القوى
التى تحيط به ، الى : اصدقاء ، والى اعداء .. ثم قسم الاعداء
الى اعداء يطيقهم ، وتناهم قدرته . والى اعداء يفوقون طوقه ،
ويعجزون قدرته .. وكذلك قسم الاصدقاء الى : اصدقاء يبادلهم
ودا ، بود ، وخدمة ، بخدمة ، والى اصدقاء يقررونه بالطفاف
النعم ، ويفدقون عليه اصناف البر ، وهو عاجز عن مكافاتهم على

صنيعهم هذا به ، لأنهم اقوياء ، وهو ضعيف ، ولأنهم اغنياء ، وهو فقير ، وقد زادت قوتهم ، واستغناؤهم ، عن حدود تصوره ، فلزم العجز ، واستشعر التنكر . . ولقد هدته هذه النظرة طريقه في الحياة : فاما الاعداء الذين يطيقهم ، وتناهم قدرته ، مثل الحيوان المفترس ، والانسان العدو ، فقد عمد في امرهم ، الى المنازلة ، والمصاولة ، والمراوغة ، فاتخذ ، من أجل ذلك ، الآلة ، يمد بها قوته ، ويعوض بها عن الانياب ، والمحالب ، التي لم تعد من طبيعة تكوينه ، كما لجأ الى الحيلة ، فاتخذ المساكن فوق الاشجار ، وفي الكهوف ، وعلى قنن الجبال . . ومن محاولاته في هذا الاتجاه نسا العلم التجريبي الذي وعمل ، في القرن العشرين ، الى فلق الذرة . .

واما الاصدقاء الذين استناع ان يبادلهم نفعا ، بنفع ، ومعاملة ، بمعاملة ، فقد هدته صداقتهم الى العيش معهم في جماعات اكبر من تلك التي يعيش فيها الحيوان ، مما ساق الى التفكير في رعاية مصالح الآخرين . وبدا ، بهذا الاتجاه ، نظام المجتمع ، وتادی ذلك الى نشأة العرف ، والعادة ، والتقليد ، التي هي مقدمات القوانين والتشريع . .

واما الاصدقاء الكبار ، والاعداء الكبار ، فقد هدته حيلته الى التزلف اليهم ، بتقريب القرايين ، وبإظهار الخضوع ، وبالتخليق . . فاما الاصدقاء فبدافع من الرجاء ، واما الاعداء فبدافع من الخوف . . وبدأت ، من يومئذ ، مراسيم العبادة . . ونشا ، من يومئذ ، الدين . .

لعمري !! ليس الأمر بهذا اليسر . . ولكن هذه مجرد العبارة ، وهي عبارة قد اضطررنا الى الإيجاز فيها ، أشد الإيجاز . . وهي ، من أجل ذلك ، ولغير ذلك أيضا ، عبارة جانبية ، ومعقدة ، ومخللة بالصورة . . وعلمنا عنها الا لا نملك في المقام الحاضر خيرا منها . .

العقل الواعى والعقل الباطن

قلنا ان العقل هو الروح الالهى المنفوخ فى البنية البشرية ، وقلنا ان النفخ يعنى الاستيلاء الارادى القاهر على العناصر ، والاحياء .. وهو ، فى مرحلة الاحياء ، انما كان باغراء العداوة بين الاحياء فيما بينهم ، وبينهم وبين جميع العناصر التى تزخر بها البيئة الطبيعية التى يعيشون فيها .. وهذا التعميم يخضع لبعض الاستثناء . فان هناك بعض القوى ، وبعض العناصر ، امكن وضعها فى جانب الصداقة ، ومع ذلك ، فان جانبها لم يكن مأمونا ، كل الامان ، والخوف من تصرفاتها ، وبدواتها ، لم يزل موجودا ، مما جعل الخوف هو العنصر الغالب فى مشاعر الاحياء .. وفى الحق ، ان الخوف (القهر) هو الذى استل المادة العضوية من المادة غير العضوية ، فبرزت بذلك الحياة .. ثم ان الخوف هو السوط الذى حشد الاحياء فى زحمة سباق التطور .. فالحياة مولودة فى مهد الخوف .. ومكتنفة بالخوف فى جميع مدارجها .. ولولا بوارق الامان ، الفينة بعد الفينة ، ولولا لوانح اللطف ، الفينة بعد الفينة ، ولولا غواشى الغفلة ، فى اغلب الاحيان ، لأجتاح الخوف الحياة ، ولقطع نياطها .. ولا يزال الخوف ، الى الآن ، هو الاصل فى سوق الحياة الى كمالها فى جانب الله .. قال تعالى فى ذلك : « وان من قرية الا نحن مهلكوها ، قبل يوم القيامة ، او معذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا » وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون .. وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا * واذا قلنا لك ان ربك احاط بالناس .. وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس .. والشجرة الملعونة فى القرآن .. ونخوفهم ، فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا » .. اعتبر قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا »

وقوله تعالى : « ونخوفهم » .. ثم اقرأ قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » .. او اقرأ قوله تعالى : « فكيف تتقون ، ان كفرتم ، يوما يجعل الولدان شيبا ، * السماء منفطر به ؟ كان وعده مفعولا . » .. وخير حالات المؤمن ان يعمل الطاعات وقلبه خائف من لقاء ربه ، قال تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون » .. وخير حالات الخوف ان يكون موزونا بالرجاء ، فلا يستبد فيتداعى الى اليأس ، ولا يضعف فيتداعى الى الغفلة .. وفي وزن الخوف والرجاء قال تعالى : « اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ، ايهم اقرب ، ويرجون رحمة ، ويخافون عذابه .. ان عذاب ربك كان محذورا » وقال ايضا : « امن هو قانت ، آناء الليل ، ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ؟ قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر اولو الالباب . » فهذه الحالة هي من حالات العلم بالله .. والحكمة وراء الخوف ، والتخوف ، انما هي سوق الناس الى الله حين يظهر لهم عجزهم عن النهوض باعباء حياتهم : اقرأ صورة لكل الذى ذكرنا ، فى الآيات ، البيئات ، التاليات : « وانك لتدعوهم الى سراط مستقيم * وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن السراط لناعبون * ولو رحمتناهم ، وكشفنا ما بهم من ضر ، للجوا فى طغيانهم يعمهون * ولقد اخذناهم بالعذاب ، فما استكانوا لربهم ، وما يتضرعون * حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون * وهو الذى انشا لكم السمع ، والابصار ، والافئدة . قليلا ما تشكرون * وهو الذى نراكم فى الارض ، واليه

تحشرون * وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل ،
والنهار . افلا تعقلون » . . هذه جميعها صور للخوف ، والتخويف
بالعذاب فى الدنيا ، وبوعيد العذاب فى الساعة ، وفى الاخرى . .
وهذا فى الاسلام ، وفى القرآن ، وهو لم يجرى الا مؤخرا ، وبعد
ان لطف حس الناس ، واصبحوا يزدجرون باقل مزدجر !! ولقد
ذكرنا ، تبارك وتعالى ، فى هذا السياق الرهيب ، بالسمع ،
والابصار ، والافتدة ، فقال : « وهو الذى انشا لكم السمع ،
والابصار ، والافتدة . قليلا ماتشكرون » وفيه اشارة الى انه
تعالى انما انشأنا بالعذاب ، وبالخوف من العذاب ، وبالتخويف منه ،
كل على كل مستوى ، من مستويات الحياة . .

ولقد قال : « قليلا ماتشكرون » ونحن انما نفهم هذا القول فهما
جيذا اذا تذكرنا قوله تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم ، ان شكرتم ،
وأمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليهما » . . فكانه قال : ان الحكمة وراء
العذاب ان الله يريد به ان يمحض ، من كثافتكم ، الرفائق التى بها
يظهر شبهكم اياه ، فتكونوا شاكرين وعالمين ، كما هو شاكر وعليم . .
ثم ان الله ، تبارك وتعالى ، يقول ، فى الآيات السابقة : « وهو
الذى ذراكم فى الارض ، واليه تحشرون » . . ذراكم بشكم ،
وشسبتكم ، كما شست البفرة « واليه تحشرون »
تجمعون ، وتساقون ، وتزفون . . وانما يكون حشرنا اليه بتقريب
صفاتنا من صفاته ، وذلك باستخراج لطائفنا من كثافتنا بالعذاب ،
وبالخوف ، وبالتخويف من العذاب . . ثم انه قال ، وههنا ملاك
الامر ، قال : « وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل ،
والنهار . افلا تعقلون ؟ » . . « يحيى ويميت » اشارة الى قهر
الحياة . . و « اختلاف الليل والنهار » اشارة الى قهر العناصر . .
ومن قهر العناصر برزت الحياة . . ومن قهر الحياة برزت العقول . .
ولذلك قال تعالى : « افلا تعقلون » . . ومن جراء القهر ولد
الخوف ، ومن جراء الخوف ولدت الحياة ، وسارت محفوزة فى

المراقى ، سمنا فوق سممت ، الى ان بلغت مرتبة ظهور العقل
البشرى فى اعلى الحيوانات .. وهى لاتزال تطرد ، تطلب مراتب
كمالات العقل والقلب ..

فالعقل هو الروح الالهى المتفوخ فى الانسيان ، والخوف هو
وسيط النفخ ، وصراع العناصر المختلفة ، التى تزخر بها البيئة
الطبيعية ، هو العامل المباشر ، والله من وراء كل أولئك محيط ..
وهذا النفخ مستمر ، وهو سرمدى ، وبأخذ فى اللطف كلما برزت
لطائف الحياة من كثائفها ، وكان لها السلطان .. وسيجىء يوم
يبدل الله فيه الخوف امنا ، والحرب سلاما ، والعداوة محبة ..
«مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليهما ؟»
واين نفخ الروح الالهى ؟ هل نفخ فى الاجساد ؟ ام هل نفخ فى
العقول ؟ لا هنا ولا هناك .. فليس الجسد مكان النفخ ، وانما هو
نتيجة النفخ .. ومثل هذا يقال عن العقل .. فليس الدماغ ، وهو
عضو العقل ، مكان النفخ ، وانما هو نتيجة النفخ .. فالنفخ متقدم
عليهما ، كما يتقدم السبب النتيجة ..

فاين كان النفخ اذن ؟

الجواب ، فى القلب !! وما هو القلب ؟ هو ذات الحى !! هو
الحى بالاصالة ، حين لا يكون الجسد ، ولا الدماغ ، حين لا
بالحوالة ..

هو الحى الذى اعطى الجسد والدماغ الحياة ، وهو ليس
خادمهما ، وانما هو سيدهما .. وقد اخطأ علم الطب الحديث -
علم وظائف الاعضاء - حين ظنه مجرد مضخة للدم .. والامر كما
هو عليه فى الدين .. ففى الحديث : « الا ان فى الجسد مضفة ،
اذا صلحت صلح سائر الجسد ، واذا فسدت فسد سائرہ .. الا

وهي القلب « وليس المقصود بالفساد هنا الفساد الحبي الذي ينتج عنه الموت الحبي : فحسب ، وإنما المقصود الفساد المعنوي الذي ينتج عنه الموت المعنوي - الكفر -

وفي القرآن التركيز كله على القلب ، ولا يجيء ذكر العقل - الدماغ والجسد - إلا في المكان الثاني .. قال تعالى « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، او القى السمع ، وهو شهيد » فالذكرى في المكان الأول لصاحب القلب الذكي ، « لمن كان له قلب » وجاء به على التنكير ليفيد التعظيم .. فان لم يكن ، فلصاحب العقل الواعي : « او القى السمع ، وهو شهيد » .. « القى السمع » يعني اعار الاذن ، وتلك اشارة الى العضو المحسوس ، وهي ، من ثم ، اشارة الى الجسد .. (وهو شهيد) يعني غير اشارد الذهن وقت الاستماع ، وتلك اشارة الى حصر القسوي التي تعمل في الدماغ - الى العقل - والآيات التي تركز على القلب في المكان الأول ، مستفيضة في القرآن ، ونحسب ان لا نستطيع ، كما اننا لانحتاج ، الى متابعتها هنا ، فليراجعها من شاء في مظانها .. وانما نريد هنا ان نورد ثلاث آيات ، هن آية في الدلالة على المكانة التي يحتلها قلب الانسان ، من الانسان .. قال تعالى على لسان ابراهيم الخليل : « ولاتخزننى يوم يعثون * يوم لا ينفع مال ، ولا بنون * الا من اتى الله بقلب سليم » ففي آخر المطاف لا منجاة من عذاب الخزي ، ولا من خزي العذاب ، الا بسلامة القلب ..

وهل يزيد في توكيد كرامة القلب لو قلنا ان لكل مخلوق قلبا ، وليس لكل مخلوق عقل ؟؟ فانه لم يعرف شيء من الكائنات ، مهما صغر حجمه ، وخف وزنه ، ليس له قلب .. ومع القلب الجسد ، فانهما كان قد نشأ في وقت واحد .. فالجسد بيت القلب ، وهو من ثم صنوه ، وزوجه ، وهو المعنى بقوله تعالى : « سبحانه الذي

خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » .. فالإشارة في « من أنفسهم » الى القلب والجسد .. وفي حين أن الجسد بيت القلب ، فإن القلب بيت الرب .. وهو ، من ثم ، زوج الرب .. والى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « ومما لا يعلمون » ...

والحواس انما هي نوافذ البيت التي تدخل النور ، والهواء الطلق للساكن ، وبها ، ومنها ، يطل الساكن ، ايضا ، على العوالم الخارجية .. والعقل ، وهو امر الحواس ، انما هو « ديدبان » القلب ، وحارسه الأمين ، يؤذنه بقرب الخطر ، ويدفع عنه الخطر ، حيث امكن ..

والقلب هو بيت الله ، هو الحرم الآمن ، الذي قال تعالى عنه : « ليكفروا بما آتيناهم ، وليتمتعوا ، فسوف يعلمون » * أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ؟ اقبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون ؟ » فالكعبة ، في مكة ، هي بيت الله ، في ظاهر الشرع ، والقلب ، في الصدر ، هو بيت الله ، في الحقيقة .. وقد جعل الله بيته آمين من الخوف .. قال تعالى ، في حق قريش : « لا يلاف قريش * ايلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » فالقلب ، في سويدائه ، حرم آمن من الخوف ، ولا يلم الخوف الا بحواشيه ، فذلك قوله : « انا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم » .. ولقد سبق لنا ان قررنا ان الله ، تبارك وتعالى ، قد نفخ الروح الالهى بوسيلة الخوف .. وقررنا ان مكان نفخ الروح الالهى انما هو القلب .. وقررنا ، فيما سلف ، ان القلب حرم آمن من الخوف .. ولذلك فقد فداه الله بالجسد ، وجعله على حواشيه ، ليكون له رداء ، ودرعا ، من الخوف ، وهذا هو السبب في نشوء الجسد في وقت يكاد يكون واحداً مع وقت نشوء

القلب .. ثم لحق بهما العقل ، ليكون عوناً على الانتصار على
 الخوف .. وحين يتم الانتصار على الخوف ، بفضل الله ، ثم
 بفضل العقل ، يصبح نفخ الروح الالهى فى القلب البشرى بوسيلة
 اللطف ، بالأمن ، وبالسلام ، وبالمحبة .. فمادام النفخ من الخارج
 فانه بوسيلة الخوف الذى تسلطه العناصر الخارجية ، وسيجىء
 وقت يصير فيه النفخ من الداخل ، ويومئذ يكون الخوف قد
 انهزم ، وإلى الابد .. والله ، تبارك وتعالى ، يقول ، فى امر
 النفخ ، فى مرحلتيه ، : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى
 انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل
 شىء شهيد ؟ » .. « سنريهم آياتنا فى الآفاق » اشارة الى نفخ
 العناصر بالقهر الإرادى فى الجسد .. قوله : « وفى انفسهم »
 اشارة الى نفخ العناصر بوسيلة الخوف ، فى الجسد ، وفى
 الدماغ ، او قل العقل ، .. قوله : « حتى يتبين لهم انه الحق » ..
 يعنى حتى يصل بهم الادراك الى استيقان التوحيد ، ويومئذ ينهزم
 الخوف ، ويجىء دور الأمن ، والسلام .. وإلى ذلك اشار بقوله
 تعالى : « اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » ..
 والقلب عضو يعمل فيه الفؤاد ، والفؤاد هو قوة الادراك
 الوترى .. والجسد والدماغ عضوان يعمل فيهما العقل ، والعقل
 هو قوة الادراك الشفعى .. وفى مرحلة الادراك الشفعى يكون
 النفخ من الخارج ، والخوف هنا حاضر ..

وفى مرحلة الادراك الوترى يكون النفخ من الداخل ، .. « اولم
 يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » .. ههنا مقام نفخ الذات
 فى الذات .. نفخ الذات الالهية فى القلب البشرى .. وليس
 للخوف ههنا مجال ..

وفى الادراك الوترى ينقطع التعدد ولا يبقى غير الوحدة ..

فالمدرک ، والادراك : والشئ المدرك ، جميعها شئ واحد ، ولذلك فان القلب هو عين الغزاد ..

ماهو العقل الباطن ؟ هو القلب ، وهو قوة الادراك الوتري ..

ما هو العقل الواعى ؟ هو العقل ، وهو قوة الادراك الشفعى ..

العقل الواعى ، وكيف نشأ ؟

نشأ العقل الواعى على مرحلتين : مرحلة قانون الغابة ، ومرحلة قانون العدل ..

فاما مرحلة قانون الغابة فقد تحدثنا عن طرف منها فى حديثنا عن الخوف ، وسكتفى بما قد جرى ذكره .. لاسيما وان هذه المقدمة قد طالت ، وهى ، على كل حال ، ليست مكانا للاستقصاء والتفصيل ..

واما مرحلة قانون العدل فانها تؤرخ بدء العقل البشرى : وبدء المجتمع البشرى .. وبدء الدين .. وبدء العرف الذى هو اصل القوانين جميعها ..

لقد قلنا ان الله تبارك وتعالى قد جعل سلالة الانسان وسطا ، فهو لم يجعله قويا يستغنى عن الحيلة بقوة عضلاته فى حل مشاكله ، وهو لم يجعله ضعيفا ، رخوا ، لا ينهض لآى من اعدائه وقلنا انه ، تبارك وتعالى ، بهذه الحكمة ، الحكيمة ، قد هداه طريق « الفكر والعمل » معا .. فهو يفكر ، وينفذ ، وبذلك اصبح طريق تطوره يختلف ، فى ظاهره ، عن طريق تطور الحيوانات ، والحشرات الاخرى .. وهو ، فى مراحلها الباكرة ، قد اهتدى الى الدين ، والى .. المجتمع ، وهذان امران ليس هناك ما هو اعظم منهما نفعا .. وقد اتفق لنا ان تحدثنا عن نشأة المجتمع ، فى كتابنا : « الرسالة الثانية من الاسلام » فليراجعه من شاء من القراء الكرام ..

وفى مرحلة قانون الغابة كان الخوف مسيطرا على المسرح ،

سيطرة تامة .. فليس هناك غير الصيد والصيد م . والصيد نفسه هو صيد لصياد اكبر منه .. وقد رسخت هذه الفترة الخوف في نفس الانسان ، واضطرته لينبحث عن الأمن في الكثرة التي من فصيلته ، والتي من فصيلة الحيوانات المستضعفة التي تكون ، في الغالب الاعم ، فريسة لذوات المخالب الحمر ، والانياب الزرق .. وكذلك انشا المجتمع ، والف الحيوان الاليف .. وقد اقتضت معيشته في الجماعة ان يتنازل ، طائعا ، او مكرها ، عن قسط كبير من حريته .. ذلك بانك لا تستطيع ان تعيش في اية جماعة بشرية بغير ان تراعى حدودا معينة ، تفيد تصرفاتك بفعل ما لا ينضر به الآخرون .. ومن هذه الحدود المعينة نشأ القانون فيما بعد .. واغلب الظن ان اول هذه الحدود انصب على تنظيم الفريزة الجنسية .. ذلك بان الفرة الجنسية امر مشترك بين الحيوان والانسان .. وقل ان تجد حيوانا ، او طائرا ، لا يفار على انثاه .. وقد دخلت هذه الصفة الحميدة مع الانسان عهد كرامته الجديد ..

ونعتقد ان ثاني هذه الحدود انصب على رعاية الملكية الخاصة ، وحمايتها ..

وبفضل حماية الزوجة ، وحماية الملكية الخاصة ، اصبح المجتمع البشري ممكنا ..

ولم يكن الامر بهذا اليسر .. فقد كان من أصعب الاشياء على الانسان البدائي ان يقيد نفسه ، وينسيطر على نزواته .. وكان من أصعب الاشياء ، ايضا ، على المجتمع ان ينفذ العقوبة على المخالف لقواعد السلوك ، وللعرف الذي درجت الاجيال على رعايته ..

ونشأت فكرة الآلهة ، وفكرة الدين ، في مطلع هذه المرحلة .. ومع فكرة الدين نشأت العقيدة في الحياة الاخرى ، بصورة من

الصور ، ومايجرى فيها من خوف ، او امن ، ينبتى على فعل الخير - رعاية العرف - او فعل الشر - مخالفة العرف - في هذه الحياة ..

ووصفت الالهة بكل الصفات التي تجعلها رهيبة ، وتجعلها قادرة ، وتجعلها مطلعة على افعال الانسان .. وقسمت الى من يصادق ، ويعين ، ويرعى من يفعل الخير ، فيطعمه من جوع ، ويؤمنه من الخوف .. والى من يستحوذ على من يفعل الشر ، فيخذله ، ويسلمه الى متهات الظلام المخوف ..

وكانت عقوبات القتل الذريع توقع على اقل مخالف من مخالفات العرف المرعى ، ولم يكن الفرد مهما في بدء المجتمع ، وانما كانت الاهمية ، كلها ، للمجتمع .. وذلك ، في وقته ، كان امرا حكيما ، غاية الحكمة : لأمرين ، أولهما : ان المجتمع ، يومئذ ، قد كان ناشئا ، وحديثا ، فهو قد كان في اشد الحاجة الى تمام الرعاية لقواعد نشأته .. وثانيهما : ان الفرد البشرى قد كان حيوانى النزعة : غليظا كثيفا ، يحتاج العنف العنيف ، لتقوى سيطرته على نزواته ، وبدواته ..

فكان العرف الاول ، بغير تدبير واع من آباء الانس - وهم قد كانوا نواة الحكومة الاولى - قد كان حكيما ، موزونا ، يرعى مصلحة الفرد ، ويرعى مصلحة الجماعة ، في آن معا .. وفي هذا تظهر حكمة الحكيم الذى سبر الحياة فى العهود السحيقة ، من بؤرة هوانها ، وذلتها ، الى منازل شرفها ، وعزها .

وقد كان الفرد البشرى ، حتى فى هذه المرحلة ، يعيش وسط الخوف .. بيد ان امرا هاما قد طرا على حياته ، وهو انه قد اصبح يستطيع ان يعيش فى امن ، بالقدر الذى يتفق مع تلك الفترة الرهيبة ، اذا ما اخلص للجماعة ، واجتنب مخالفة العرف الذى ترعاه .. ليس فقط يعيش فى امن .. بل انه لينعم بصداقة

الآلهة ، وصداقة الارواح الخيرة ، التى ترف باجنحتها عليه ،
وصداقة الخيرين من ابناء ، وبنات ، الاسر التى تكون الجماعة ..
وهكذا ، بدافع من الرهبة والرغبة ، اخذ يبرز الذكاء الذى
يميز بين ما يلىق ، وما لا يلىق ، واخضعت تبرز الارادة التى تروض
الشهوة الفطرية ، لتسوقها فى طريق الواجب .. وذلك برفض
اللذة العاجلة ، ايثارا للذة الاجلة ، التى قد تكون فى كنف الآلهة ، فى
هذه الحياة ، او فى الحياة المقبلة بعد الموت ، او قد تكون فى
رضا الجماعة ، وتقديرها ، وثنائها المستطاب ..

فمن الاحتكاك بين اللذة الحاضرة ، والواجب المرعى برز الذكاء
للتمييز ، وبرزت الارادة للتنفيذ .. وهذه هى بداية العقل
البشرى ، لأن به دخلت القيمة فى وجود الإنسان ، ولأن به تجدد
اعتبار المستقبل ، وبدا جولان الخيال فى شعابه ، وانسراحه فى
غيوبه .. وبهذا المستوى من العقل البشرى بدا الدين الخاص ،
واخذ يستصفى من الدين العام ، كما تستصفى حرارة الشمس
ماء الانهار العذب من مياه البحر الملح ..

لقد قلنا ، آنفا ، ان الروح الالهى المنفوخ فى البنية البشرية هو
العقل .. وقلنا ان الله نفخه فيه بوسيلة الخوف الذى نتج عن
اغراء العداوة بين الاحياء فيما بينهم ، وبين الاحياء والعناصر التى
تزخر بها البيئة الطبيعية التى اوجد الله فيها الحياة .. ونقول
الآن ان مرحلة بروز العقل البشرى ، فى البشر ، تؤرخ تحولا
جوهريا فى طريقة نفخ الروح الالهى ، وذلك ان الطريق قد انفتح
امام الانسان ، بفضل الله ، ثم بفضل العلم ، ليكون بمقاومة من
عذاب الخوف ان هو اتبع الواجب الذى ترسمه الحكمة .. وذلك
بمراغمة هوى نفسه .. وهو لم يترك فى حيرة من امر الواجب ..
فقد تولى الله هدايته ، فارسل رسل الانوار - الملائكة - لتمهد
بدائه العقول ، التى نشأت فى الظلام ، باسباب القدرة على

صحة الإدراك . . وهو تبارك وتعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » والرسول الأولي رسل العناصر التي ابرزت ، بالخوف ، الجسد من القلب . . ثم ابرزت ، بالخوف ايضا ، الحواس من الجسد . . ثم ابرزت بالخوف ايضا ، العقل من الحواس . . والرسول الثانية رسل العقول الى كل فرد بشرى . . والرسول الثالثة رسل عقول الحكماء ، والأذكياء ، والمجربين ، الى عقول أهل الفراسة والسذاجة . . والرسول الرابعة رسل الملائكة الاطهار ، تتصل بالبشر المؤهلين ، لتسوقهم ، ولتسوق بهم ، الى طريق الحكمة ، والصلاح ، الذي به يكون العتق من الخوف ، ومن الضلال الذي يوجب الخوف . . قال تعالى : « الذين آمنوا ، ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، اولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون » والرسول الخامسة ، اذن ، رسل البشر المكرمين ، الى بقية البشر المكلفين . . ياتونهم ببيانات السماء ، عن طرائق الوحي الأمين . . والرسول السادسة رسل العقول المرتاضة بادب الحق ، وبادب الحقيقة ، الى القلوب التي وسعت كل شيء ، لانها بيت المطلق . . والرسول السابعة رسل هذه القلوب . . الى هذه القلوب منها واليها ، بغير واسطة فما في الكون الا اياها . .

ومرحلة قانون العدل لاتزال سارية ، وهي لاتزال تدارك ، بمحض الفضل ، على مرحلة قانون الفاقة . . فهما ، انما تقتسمان النفوذ ، اليوم ، وستكون الدولة لقانون العدل ، يوم ينتصر الانسان على الخوف ، ويبلغ من القسمة ، ويحقق وحدة ذاته . .

لقد قلنا ان الانسان بفعل الخوف ، وبفعل الرجاء ، قد بدأ يسيطر على نزواته ، وبدواته ، واخذ يروض شهواته بعقله ، حتى لا ياذن بالحركة للشهوة التي توقعه في غضب الالهة ، وغضب الجماعة ، وتوجب عقوبتهما ، عاجلا او آجلا . . .

ومن هذه السيطرة نشأ الكبت ، وانقسمت الشخصية ..
واليوم ، فان من الكبت الذى نعانيه ماهو نصيب احدنا من التراش
البشرى فى التاريخ الطويل ، ومنه ماهو كسبه الخاص . اثناء
مارسته حياته فى بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فى عمره هذا
القصير ..

والذى اوجب الكبت ، فى الماضى ، ولايزال يوجبه ، هو تصور
الجماعة ، وتصور الفرد . للواجب عرفا ، وشرعا .. وفى يوم
الناس هذا وبعد ان قطعت البشرية كل هذا العمر الطويل . فان
هذا التصور لايزال غيبا ، وجاهلا ، وبعيدا عن الحكمة .. فبا
ذلك به يوم بدأ الكبت فى صدر اول فرد بشرى ؟؟

والكبت مرحلة هامة ، من مرحلتى سيرنا نحو الكمال ، وهو ،
من ثم ، ليس شرا ، وانما يجيء الشر من اقامتنا عليه ، وقعودنا
عن السعى الى التخلص منه .. ولما كان الكبت نتيجة للخوف ،
فان التخلص منه لا يتم الا بالتخلص من الخوف ، وبالتخلص من
الخوف ندخل المرحلة الثانية ، والاخيرة ، من مرحلتى سيرنا الى
الكمال ..

ولا يكون التخلص من الخوف الا بالعلم - الا بمعرفة الاشياء
على ماهى عليه فى الحقيقة المستورة عنا باستار الغيب - فاننا لو
اطلعنا على الغيب لهزمنا الخوف ، قال تعالى عن جن سليمان :
« فلما قضينا عليه الموت ، ماد لهم على موته الا دابة الارض ، تاكل
منساته ، فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا
فى العذاب المهين » .. وقال تعالى عن لسان حبيبه : « قل لا املك
لنفسى نفعا ، ولاضرا ، الا ماشاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب
لاستكثر من الخير ، وماستنى سوء ، ان انا الانذير ، وبشير ،
لقوم يؤمنون » والغيب هو الله .. والله تبارك وتعالى ، يعنى
هذا حين قال : « قل لايعلم ، من فى السموات ، والارض ،

الغيب ، الا الله ، وما يشعرون ايان يبعثون » وجاءت عبارة :
 « وما يشعرون » هنا لتشير الى ان حياتنا ناقصة ، لنقص علمنا ،
 ذلك النقص الذى سلب علينا الخوف . وقد حفر الخوف بعضنا
 ليكون درعا لباقينا ، وقل بذلك شعورنا .. ونحن ننتظر ان
 يبعث ، بالعلم ، البعض الذى اماته الخوف منا .. وذلك امر
 محقق ، ولكننا نجهل ميقاته .. وجاء باسم الاستفهام « ايان »
 لتشير الى الزمان الذى فيه البعث .. « يبعثون » ، وهذه عبارة
 تشير الى اننا اموات بسبب الجهل ، وننتظر البعث بالعلم ..
 ولقد قلنا ان العلم الذى به الحياة انما هو ادراك الاشياء كما هي
 فى الحقيقة .. والحقيقة هي الله ايضا .. فالحقيقة ، والغيب
 هما العلم المطلق وهو فينا ، فى حالة كمون ، ولا يفر منا الا فى
 المكان ، والزمان .. والذى نحققه من المطلق ، فى الزمان والمكان ،
 هو العلم النسبى - هو الحق - والحق هو وجه الاشياء التى
 يلى الحقيقة .. ونحن لانستطيع ان نحقق من المطلق شيئا الا اذا
 تحلينا بما يسمى « ادب الوقت » .. وادب الوقت هو الحضور
 فى اللحظة الحاضرة ، من لحظات الزمان .. ذلك بان اللحظة
 الحاضرة هي اصل الزمان ، وهي وسط بين طرفين ، كليهما
 وهم ، وكليهما ، فى حكم الحقيقة ، باطل .. وهما لا يجسدان
 تبريرهما الا فى الحكمة التى تقوم وراء خلق الأزواج ، قال
 تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » ففروا
 الى الله ، انى لكم منه نذير مبين » .. هذه هي الحكمة فى خلق
 « الزوجين » .. « لعلكم تذكرون » ومعناها لعلكم تتعلمون ..
 لان عقولنا لاتترك الاشياء الا باضدادها .. وهذا ما عنيناه بقولنا :
 آنفا ، ان العقل هو قوة الادراك الشففى ..
 ثم قال « ففروا الى الله » .. فروا من الفسدين ، كليهما ،
 الى من لا ضد له ..

ولنعد للزمان ، فقد قلنا ان اللحظة الحاضرة هي أصله ،
وقلنا ان هذه اللحظة الحاضرة هي وسط بين طرفين كليهما
وهم .. ونقول هنا ان هذين للطرفين هما الماضي والمستقبل ..
فليس الماضي زمنا ، ولا المستقبل زمنا ، باعتبار الحقيقة ، وانما
هما زمانان باعتبار الحكمة . والشئ الذى هو زمن ، باعتبار
الحقيقة ، انما هو اللحظة الحاضرة ، وهذه اللحظة الحاضرة
تدق ، حتى لتكاد ان تخرج عن الزمن ، فاذا خرجت من الزمن ،
التقت بالاطلاق ، فكانت اياه .. وهذا حديث يحتاج الى شرح
لانجد له الوقت ، ولا الحيز ، هنا ، وقد نعود اليه مرة اخرى ..
وبهنا هنا عبارة « ادب الوقت » التى اشرنا اليها آنفا .. فان
ادب الوقت هو الحضور مع اللحظة الحاضرة ، لان فيها ذات
الله .. فما هي فى الماضى ، ولا هي فى المستقبل .. واللحظة
الحاضرة تمثل القلب ، والماضى والمستقبل يمثلان الدماغ .. كل
منهما يمثل نصفا .. كل منهما يمثل جناحا من جناحي الطائر -
طائر الزمان - والفضل فى بروز الجسد أولا ، ثم العقل ثانيا .
من القلب ، يرجع الى الله ، ثم الى المستقبل والماضى .. ذلك
بان الخوف ازعجنا عن العيش فى اللحظة الحاضرة ، وشدنا الى
المستقبل ، وهو بنفس القدر ، ولنفس السبب ، شدنا الى
الماضى ، فاصبحت حياتنا « ارجوحة » بين الماضى والمستقبل ،
فنحن لانتظر فى اللحظة الحاضرة ، الا ريثما نتحول منها ..
ونحن ، فى اثناء مرورنا باللحظة الحاضرة ، انما نتلقى الحياة
التى نطبقها ، ولولا انا مشدودون الى الماضى والمستقبل ، فلا
نلبث ، فى اللحظة الحاضرة ، الا ريثما نتحول ، لاحتسرت
حياتنا ، هذه الناقصة ، ذلك بان اللحظة الحاضرة ، حين تنامى ،
فيها الحياة المطلقة ، ونحن بعد ، لم يستعد المكان قيثا ليثلقى من
المطلق الا بالقدر القليل جدا ، وهو قدر يزيد ، بمحض الفضل ،
كل حين ..

والماضي ، والمستقبل حجابان يحسولان بيننا وبين اللحظة الحاضرة ، فلا نعيش فيها إلا بالقدر الذي تطيقه حياتنا الناقصة ، والتي تسير الى الكمال ، كل حين ، ولكن « بقدر معلوم » واصحابنا الصوفية يقولون « الحجاب رحمة » .. وهم انما يعنونه في هذا المقام بالذات .. فان التعرض لتجلى الحقيقة الكبرى على اوان ناقصة يحصل منه « السحق » وهو ذهاب العقل ، واذا ذهب العقل فقد انقطعت الزيادة ..

والى هذين الحجابين ، في المكان الاول ، الاشارة بقوله تعالى : « سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل ، وسارب بالنهار » * له معقبات ، من بين يديه ، ومن خلفه ، يحفظونه من امر الله .. ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، واذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » عني بقوله « من أسر القول » المادة غير العضوية ، وعني بقوله « ومن جهر به » المادة العضوية ، وهي تشمل جميع درجات الاحياء . قوله « له معقبات » يعني حجابا .. « يحفظونه من امر الله » يعني من التجلى الوترى ، فلا يتمحق تحت هيئته .. قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » يعني ، فيما يعني ، لا يتجلى تجليا وتربيا على مكان قبل استعداد ذلك المكان لتلقى الامر الجلل .. وهو ، تقدست اسماؤه ، فيها هو دون التجلى الوترى ، لم ينزل كلامه على حبيبه الا بعد ان اعد المكان بطول التحنت .. ثم قال ، زيادة في ذلك : « يا ايها المزمل » * قم الليل الا قليلا * نصفه او انقص منه قليلا * او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ..

وعندما طلب موسى رفع هذه الحجب قبل ان يستعد المكان منه للتجلى الوترى لم يجب ، بمحض الرحمة ، الى طلبه .. قال تعالى في ذلك : « ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال رب !!

أراني ، انظر اليك !! قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل ، فان
استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ،
وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال : سبحانك !! تبث اليك ،
وانا اول المؤمنين * قال : يا موسى اني اصطفيتك على الناس
برسالتي ، وبكلامي ، فخذ ما آتيتك ، وكن من الشاكرين ..
وهذا ليس نهيا لموسى عن طلب الزيادة ، ولكن توجيه له
ليطلب الزيادة بالعمل بالشرعة ، ليستعد المكان منه للتلقى ،
فيجىء الفيض من الله .. لان استعداد المكان انما هو سؤال بلسان
الحال ، والدعاء بلسان الحال لا تتأخر الاجابة عليه ،
ولا الاستجابة له ، والله ، تبارك وتعالى ، يقول : « ادعوني
استجب لكم » ..

وقد فدى الله موسى بالجبل ، وجعله له عبرة ، ومن خلال
العبرة تم التجلى لموسى ولكنه لم يكن تجليا وتربيا لان الجبل قد
جعل واسطة فيه ..
وحدة البنية البشرية

ان القلوب حرم آمن من الخوف لانها بيت الله ، وقد اسلفنا
في ذلك القول ، ونحب ان نقول ان هذا ينطبق على جميع القلوب،
حتى قلب المادة غير العضوية وهي مانسميها اصطلاحا «ميتة» .
وعن سلامة القلوب في اصل التكوين قال المعصوم : « كل مولود
يولد على الفطرة ، فابواه يهودانه ، او ينصرانه ، او يمجسانه » ..
وفي ذلك قال تعالى عن اليهود : « وقالوا قلوبنا غلف ، بل
لعنهم الله بكفرهم ، فقليل ما يؤمنون » وقال عنهم ايضا : « فيما
نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الانبياء بغير حق ،
وقولهم قلوبنا غلف .. بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون
الا قليلا » .. قال هناك « فقليل ما يؤمنون » وقال هنا « فلا
يؤمنون الا قليلا » وذلك ان الكافر لا يكون بغير ايمان اطلاقا ، فان

في قلبه الحقيقة - في عقله الباطن الحقيقة - ولكن بينها وبين عقله الواعي حجب كثيفة وهذه الحجب هي التي عبر عنها ، تبارك وتعالى ، حين قال : « كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا ، انهم عن ربهم ، يومئذ ، لمحجوبون » والرين هو الصدا والدنس والطبع .. وذلك كله قد كان بسبب الكبت الذي جرى منذ نشأة المجتمع البشرى ، والذي لا يزال يجرى ، وهو قد قام في ظل الاوهام ، والخرافات ، والاباطيل ، التي صحبت علمنا بالله ، وبحقائق الاشياء ، وبما يكون عليه الواجب علينا نحو انفسنا ، ونحو الله ، ونحو الجماعة .. وهذه هي المرحلة التي اسميناها مرحلة الجسد والعقل المتنازعين ، والتي ستعقبها ، بعون الله وبتوقيه ، مرحلة الجسد والعقل المتسقين . ولما كانت القلوب ، في سويداواتها ، قد جعلها الله جرما آمنا فان منطقة الكبت لاتقع فيها ، وانما تقع في « الخرطوم » ، في « القرن » في « البرزخ » الذي يقوم عند مجمع بحرى العقل الواعى ، والعقل الباطن .. قال تعالى في ذلك : « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان » .. وهذا « الخرطوم » هو موطن الانسان في الانسان - هو موطن الانسان الكامل ، في الانسان الذي هو مشروعه المستمر التكوين - وكما ان طريق التكوين ، والتطوير ، لولبى ، فكذلك الكبت فانه لولبى .. هو لولب يدور حول مركز ..

والانسان الكامل يجرى من التقاء موسى العقل ، بخضر القلب على شرط ان يجد موسى مع الخضر الصبر ، والثبات .. ولقد قص الله علينا عن موسى الشريعة ، وخضر الحقيقة ، حيث لم يستطع موسى مع الخضر صبرا : « واذا قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين ، او امضى خقبا * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا * فلما

جاوزا قال لفتاه آتيا غدا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا *
 قال ارايت اذ اويناه الى الصخرة ؟ فاني نسيت الحوت !! وما
 انسانيه الا الشيطان ، ان اذكره ، واتخذ سبيله في البحر ..
 عجباً !! * قال ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصا *
 فوجدا عبدا من عبادنا ، آتيناہ رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا
 علما * قال له موسى : هل اتبعك ، على ان تعلمني ، مما علمت ،
 رشدا ؟ * قال انك لن تستطيع معي صبرا * وكيف يصبر على
 ما لم تحط به خبرا ؟ * ولم يصبر موسى .. وانما هو لم يصبر لانه
 صاحب شريعة ، وكان على الحق غيورا .. ولو قد عمل بشريعته
 هذه حتى بلغ حقيقة كحقيقة الخضر لصبر معه .. والمحاولة هنا ،
 عندنا نحن ، هي ان تقوى ، بالعبادة ، عقولنا حتى تسبائر ، في
 المطالع ، قلوبنا ، من غير ان تزعجها ، او تعجلها ، فتعيش
 مستترين ، ومنورين ، في افق مشمسارقنا ، ومقاربنا ، بقمر
 شريعتنا ، وشمس حقيقتنا ، والمسافة بينهما محفوظة ، في غير
 اخلال : « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق
 النهار .. وكل في فلك يسبحون » .

ومنطقة الكبت ، في صدر كل منا ، عبارة عن سجن رهيب ..
 أشد رهبة من سجن « الباستيل » المشهور .. وهو سجن مظلم ،
 لا يصل اليه النور ، ولا الهواء .. وقل ان تصل اليه ، من الخارج ،
 الاصوات .. وقد زج في هذا السجن بأبرياء ، ومظالم ، واحرار ،
 بغير محاكمة وقام على ابوابه سجانون عتاة ، اشداء ، ارهبوا
 السجناء ، واذلواهم ، واضطروهم الى الطاعة ، ففقدوا الحرية ،
 وفقد بعضهم الحركة .. ولكنهم لا يزالون ، جميعهم ، احياء
 يتظلمون ليوم الانتقام ، وامامهم احدى خطتين : اما ان يثوروا
 بالسجنائين والحراس ، ويقتحموا ابواب السجن ،
 فتسبيل بهم السوارع سبيلا بشريا

مجتاحا ، اوان يجدوا العدل منا ، والانصاف ، والتفهم العميق ..
وفى سبيل هذا التفهم برزت فى أوروبا ، وفى أمريكا ، اساليب من
الحياة ، والفكر ، كاساليب « الهيبىز » واساليب « اللامعقول » ،
ولكنها اساليب تدل على الحيرة ، وعلى القلق ، وعلى الجهل
باصل المشكلة .. ومع ذلك فانها تملك فضيلة الاعتراف بهذه
المأساة ، فى حياتنا ، التى تحاول الكثرة الغالبة تجاهلها .. ومن
أجل ذلك فانا لانعتبر حركات الشباب ، التى تتجه اتجاء
« الهيبىز » علامة مرض ، وانما هى عندنا علامة صحة .. وهذا
هو الذى جعلنا نجزم باننا نعيش الآن فى أخريات ايام مرحلة
التطور العضوى - العقلى ..

ومن أجل تفهم هذه المأساة لابد من تعمق اصولها ، وهى
اصول بدأت منذ فجر العقل البشرى .. وقد كان الخوف ،
والجهل مسيطرين على قضاة وسجاني هؤلاء البؤساء .. ونحن
لانسطيع ان نعيد الحرية لهؤلاء المظلالم الا اذا كنا ، قضاة
وسجاني ، متحررين من الخوف ، ومتحررين من الجهل ..
ولا يحررنا من كل أولئك الا العلم بالاشياء على ما هى عليه فى
الحقيقة .. واول مانعطيه حقيقة الاشياء ان الناس قد خلقوا
ليكونوا احرارا .. ولا يذهلنا عن هذه الحقيقة كون الناس قد
خطفوا ضعافا .. فان هذه مرحلة ، وهم ، فى هذه المرحلة ، قد
باعوا حريتهم ، وقد انى لهم الان ان يستردوها بالعمل الجماعى ،
وبالعمل الفردى ..

واول مايمكن ان يقدمه لنا العمل الجماعى تنظيم الجماعة
وفق قانون العدل ، بدلا من قانون الغابة ، حتى نحارب الخوف فلا
نضطر الى زيادة السجناء (الكبت) ، بغير موجب .. وقانون
العدل يقول انه ليس هناك قوى ، وضعيف ، وانما هناك محق

ومبطل .. والمحق يصله حقه وان كان عاجزا ، والمبطل
ينال منه سلطان العدل ، وان كان متجبرا كفارا ..

ومن اجل محاربة الخوف فان قانون العدل يقول : ان الناس
اشراك في خيرات الارض ، واشراك في تولي السلطة — الاشتراكية
والديمقراطية — وفي بنتهما الشرعية — العدالة الاجتماعية —
وثانى ماتعطيه حقيقة الاشياء ان الوجود خير كله .. لا مكان
للشر ، في أصله ، وانما الشر في مظهره .. وسبب الشر هو جهلنا
بهذه الحقيقة .. ومن ثم ، فليس هناك ما يوجب الخسوف ..
ونحن لا نستطيع ان نستيقن هذه الحقيقة الكبرى الا اذا تلقينا من
الله بغير واسطة ، ولا يكون لنا ذلك الا اذا لقينا الله ، ونحن
لا نستطيع ان نلقاه الا اذا عشنا متحليين « بادب الوقت » وهو ان
نعيش في اللحظة الحاضرة ، غير مشتغلين بالماضى ، ولا بالمستقبل ..
وهذا ما من أجله فرضت الصلاة .. وهذا هو الصلاة ..
وستجدون هذا مفضلا في هذا الكتاب الذى نعيد تقديمه اليكم بهذه
المقدمة الطويلة ، المستفيضة ..

ان التحلى « بادب الوقت » يوصل الى ذات الله ، ويوصل
بفضل الله ، الى توحيد الذات البشرية ، وذلك بحل العقد النفسية
التي قسمت شخصيتنا ، واورثتنا الشذوذ في جميع صوره ،
وجميع مستوياته .. وهو أيضا — التحلى « بادب الوقت » —
يفتح العهد الجديد — عهد المرحلة الرابعة من مراحل نشأة
الانسان — وهى مرحلة التطور العقلى الصرف ، الذى تحدثنا عنه
آنفا ، ووعدنا بالعودة اليه .. بيد اننا لا نملك في هذا المقام فى امره
تطويلا .. وانما نكتفى بماورد فى شأنه فى مقامه من هذه المقدمة ..

خاتمة

اما بعد فان هذه المقدمة قد استغاضت ، وكان همى دائما ،
وانا اسير فى شعابها ، كفكة اطرافها .. ولكن موضوعها طويل
بطبعه ، وسنفرده مؤلفا مستقلا باسم « الاسلام علم نفس »
وبالله التوفيق .. وعليه التكلان ..

ومهما يكن من الامر ، فان الله ، تبارك وتعالى ، قد اظفرنا من
هذه المقدمة بما نريد .. وانى لارجو ان ينفع الله بها الناس ،
فيقبلوا على قراءة « رسالة الصلاة » وهم ينتظرون من وراء
صلاتهم ، فائدة حاضرة ، وعاجلة ، فان آجلا لا يبدأ عاجله اليوم
ليس بمرجو ..



بسم الله الرحمن الرحيم

« اليوم اكملت لكم دينكم ،

واتممت عليكم نعمتى ،

ورضيت لكم الاسلام ديناً . »

صدق الله العظيم

نحمدك اللهم ولا نحمى ثناء عليك ونستهديك ونستعينك .

بشارة

الاسلام عايد عما قريب بعون الله وبتوقيقه .. هو عايد ، لأن القرآن لا يزال بكرا ، لم يفض الاوائل من اختامه غير ختم الغلاف .. وهو عايد ، لأن البشرية قد تهيأت له ، بالحاجة اليه وبالطاقة به .. وهو سيعود نورا بلا نار ، لأن ناره ، بفضل الله ثم بفضل الاستعداد البشرى المعاصر ، قد اصبحت كنار ابراهيم بردا وسلاما .. ان العصر الذى نعيش فيه اليوم عصر مائى ، وقد خلفنا وراءنا العصر النارى .. هو عصر مائى ، لأنه عصر العلم .. العلم المادى المسيطر اليوم والعلم الدينى — العلم بالله — الذى سينتوج ويوجه العلم المادى الحاضر غدا .. وفى عصر العلم تصان الحرية وتحقق الدماء وتنصب موازين القيم الصحائح .

البصيرى امام المديح يقول :

شيئاً لا ينقى الضلال سواهما نور مفاض او دم مسفوح

وقد خلفنا وراءنا عهد الدم المسفوح ، فى معنى ما خلفنا

العصر النارى ، واصبحنا نستقبل تباييج صبح النور المفاض ..

بل أن هذا النور قد استعلن على القمم الشواهد من طلائع

البشرية ، ولن يلبث ان يغمر الارض من جميع اقطارها ..

وسيردد يومئذ ، لسان الحال ولسان المقال ، قول الكريم المتعال :

« الحمد لله الذى صدقنا وعده ، واورثنا الارض ، فنبوأ

من الجنة حيث نشاء ، فنعم اجر العاملين »

✱ ● ✱

✱ ● ✱

توطئة البحث ..

السلام هو حاجة البشرية اليوم .. وهو في ذلك حاجة حياة أو موت ، ذلك بان تقدم المواصلات الحديثة ، الذي يحاول باستمرار ان يلغى الزمان والمكان ، قد جعل هذا الكوكب اضيق من ان تعيش فيه بشرية منقسمة على نفسها شاكّة السلاح متحاربة .

ومع ان التجربة البشرية الطويلة في ممارسة الحروب دلت على أن الحرب لا تحل مشكلة ، فإن أسلحة الدمار الحديثة افادت معنى جديدا عن الحرب وهو انها ، زيادة على عدم جدواها في حل المشاكل ، قد اصبحت وبالا على المهزم والمنتصر .. بل انه اصبحت واضحا أن الحرب العلمية الحديثة ، اذا نشبت ، فلن يكون فيها مهزم ومنتصر ، وانما سيكون فيها فناء المدنية الحاضرة ، وتأخير عقارب ساعة التقدم الذي دفعت فيه البشرية كثيراً من عرقها ومن دموعها ومن دمها .

ان البشرية اليوم تقف على مفترق الطرق ، ولا تملك طويلا من الوقت تنفقه في التردد وفي ممارسة الجهود التي لا تنسم بهيسم الحذق والذكاء ، ولا بد لها من سلوك احد طريقيها : اما الطريق الصاعد الى مشارف الحضارة والسلام ، أو الطريق الهابط الى هزالق الهمجية والحروب .. على ان الحروب الحديثة هي الفناء والدمار .. ومن أجل ذلك قلنا أننا ان حاجة البشرية

الى السلام في الوقت الحاضر هي حاجة حياة أو موت .
المدنية الجديدة ..

على ان السلام لا يمكن ان يتحقق بغير مدنية جديدة ..
أو قل روح مدنية جديدة ، ينفخ في هيكل المدنية الغربية الآلية
الحاضرة ، فيوجهها وجهة جديدة ويعطيها قيما جديدة ..
فالمدنية الغربية الآلية الحاضرة - مدنية المظاهر الخارجية
الكبيرة ، والإنتاجيات الكبيرة ، والمدن الكبيرة .. هي مدنية
الجماعات التي تلوع الفرد لنظامها . والمدنية الجديدة ، التي
تجعل السلام ممكنا ، يجب ان تكون مدنية القيم الداخلية
الدقيقة .. مدنية الفرد الذي يتوصل بوسيلة الجماعة ليحقق
حريته الداخلية وليمكن رفقاءه من ان يحقق كل منهم
حريته هذه الداخلية .

ان عصرنا الحاضر يمكن ان يوصف بأنه عصر الذرة :
ويمكن ان يوصف بأنه عصر استكشاف الفضاء الخارجي ،
ولكن ينطبق عليه اكثر ، كونه عصر رجل الشارع .. عصر
الرجل العادي المغمور ، الذي استشرت على مضجعه شمس
الحياة الحديثة ، فنهض وحمل عصاه على عاتقه وانطلق يسير في
الشعاب ، يبحث عن حياته وعن حريته وعن نفسه ، بعد ان اذهل
عن كل أولئك طوال الحقب السوالم من تاريخه المكتوب وغير
المكتوب .. ذلك التاريخ الذي اخذ يراجع اليوم ، ويكتب من

جديد على هدى قيم جديدة .. وهذه القيم الجديدة هي التي ستوجه المدنية الغربية الآلية الحاضرة وجهتها الجديدة وتبنى بذلك المدنية الجديدة .

المدنية الغربية ذات وجهين ..

ان المدنية الغربية الآلية الحاضرة عملة ذات وجهين : وجه حسن مشرق الحسن ، ووجه دميم . فاما وجهها الحسن فهو اقتدارها في ميدان الكشف العلمية ، حيث اخذت تطوع القوى المادية لأخصاب الحياة البشرية ، وتستخدم الآلة لمعون الانسان .. واما وجهها الدميم ، فهو عجزها عن السعى الرشيد الى تحقيق السلام ، وقد جعلها هذا العجز تعمل للحرب ، وتنفق على وسائل الدمار اضعاف ما تعمل للسلام ، واضعاف ما تنفق على مرافق التعمير .

فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكرتها الاجتماعية ، وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة .. حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وفي الحق ان العجز عن التوفيق بين هاتين الحاجتين : حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة ، ظل آفة التفكير الاجتماعي في جميع عصور الفكر البشري .

وهذا التوفيق هو الى اليوم القمة التي بالقياس اليها يظهر

العجز الفاضح في فلسفة الفلاسفة وفكر المفكرين ، ويمكن القول
بان فضيلة الاسلام لا تظهر بصورة يقصر عنها تطاول كل
متطاول الا حين ترتفع المقارنة بينه وبين المذاهب الاخرى الى
هذه القمة الشماء .

الفصل للتوحيد ..

وقد استطاع الاسلام ، بفضل التوحيد ، ان يفض التعارض
البادي ، لدى النظرة الاولى ، بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة
وان ينسق هاتين الحاجتين في سبط واحد ، تكون فيه حاجة
الفرد الى الحرية الفردية المطلقة امتدادا لحاجة الجماعة الى
العدالة الاجتماعية الشاملة ، وبعبارة اخرى ، استطاع ان يجعل
تنظيم الجماعة وسيلة الى الحرية . وهو بعد هذا انما استطاع
هذا التنسيق لان تشريعه يقع على مستويين : مستوى الجماعة
ومستوى الفرد : فاما تشريعه في مستوى الجماعة فيعرف
بتشريع المعاملات ، واما تشريعه في مستوى الفرد فيعرف
بتشريع العبادات ، والسمة الغالبة على تشريع المعاملات انه
تشريع ينسق العلاقة بين العبد والعبد .. والسمة الغالبة على
تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين العبد والرب ..
وليس معنى هذا ان كلا من هذين التشريعين يقوم بمعزل عن

الآخر ، وانما هما شطرا شريعة واحدة ، لا تقوم الا بهما معا . .
فتشريع المعاملات تشريع عبادات في مستوى غليظ ، وتشريع
العبادات تشريع معاملات في مستوى رفيع لأن سمة الفردية في
العبادات اظهر منها في المعاملات .

الفردية هي المدار . .

وهذه الفردية هي جوهر الامر كله ، وهي التي عليها مدار
التكليف ، ومدار التشريف . . وقد وكدها الاسلام توكيدا ، اذ لا
تنصب موازين الحساب ، يوم تنصب ، الا للافراد . والله تعالى
يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول عز من قائل « فمن
يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . »
ويقول « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » ويقول « ان كل من في
السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا * لقد احصاهم
وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا » ويقول « ولقد
جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة »

فالفرد في الاسلام هو محور التشريع بالاصالة ، والجماعة
بالتبعية للفرد ، ذلك بان الفرد لا يتم استواؤه الا بتجاربه في
الجماعة ، فكان العبادة في الخلوة مدرسة تعدد الاعداد النظرى
ولا يجد فرصة التطبيق العملى الا في سلوكه في الجماعة وتمرسه
بمعاملة افرادها .

فليست للعبادة قيمة أن لم تنعكس في معاملتك الجماعة معاملة
هي في حد ذاتها عبادة ، ولقد قال المعصوم : « الدين المعاملة » .
ثم جاءت تشاريح الاسلام سواء في الحدود ، أو في القصاص ،
مهيئة للتعاون مع تشاريح العبادة على تربية الفرد ، تربية ينتفع
بها هو في المكان الاول ، وتنتفع بها الجماعة في المكان الثاني ..
ولنسق لذلك مثلا حد السرقة ، وهو من الحدود الاربعة الاصلية ،
فان السارق اذا سرق اقل من النصاب لا يقطع ، واذا سرق
النصاب من غير الحرز لا يقطع ، واذا سرق النصاب من الحرز
نظر في امره فاذا كان جائعا جوعاً ملجئاً لا يقطع ، فان لم يكن
جائعاً فهل هو مريض ؟ فان كان مريضاً لا يقطع ، وانما يلتصق
له الطب .. فان لم يكن الحد مدروءاً عنه بأي شبهة ، وقامت
عليه اركان السرقة كلها قطع . والحكمة وراء القطع العلاقة
القائمة بين العقل واليد .. فالإنسان الجاهل دائماً يحاول حل
مشكلته باليد ، فهو ان ناقشته مثلاً ، واعيته الحجة بادر الى
العنف بيده .. وحاجته الله الى الخلق قلوبهم وعقولهم ..
« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »
واللعلاقة القائمة بين اليد والعقل رأت حكمة الشارع الحكيم
ان اليد اذا تعطلت بالقطع نشط العقل ، وتفتق ذكاؤه عن اساليب
للتعامل اقرب الى المسالة منها الى المناجزة ، وكذلك قطعها ،

وحقق بهذا القطع ، الذى لم يكن منه بد ، مصلحة للفرد بإيقاظ عقله ، ومصلحة للجماعة بصون حقوقها من الاعتداء عليها .. وهذا ما اردناه حين قلنا آنفا ان تشاريع الاسلام ، سواء فى الحدود أو فى القصاص ، مهيئة للتعاون مع تشاريع العبادة على تربية الفرد تربية ينتفع بها هو فى المكان الاول ، وتنتفع بها الجماعة فى المكان الثانى ..

والسلام الذى بدأنا بذكره توطئة هذا البحث لا يحل على الأرض الا اذا بلغ كل فرد ان يكون فى سلام مع نفسه ، فان النزاع المسلح ، وغير المسلح ، بين الجماعات ، ان هو الا صورة للصراع الداخلى فى كل بنية فردية على حدتها ، فى مضمار انقسامها بين ظاهر تعلنه امام الناس ، وباطن تسره فى حناياها وتناقض به .. ولا يمكن للفرد أن يكون فى سلام مع نفسه ، الا اذا أعاد اليها وحدة الفكر والقول والعمل .. فاصبح يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون عاقبة عمله هذا الا خيراً للناس وبرأبهم .. وهكذا يكون فوق مستوى قوانين الجماعة ، لانه بفضل تربيته ورياضته نفسه قد اصبح من المجودين للسلوك المحسنين و « ما على المحسنين من سبيل » .. فاذا كان الفرد بهذه المرتبة من كمال الشمائل ، فهو الرجل — هو الخير — ولا يتجلب هذا الرجل الا المجتمع الكامل ، وهو المجتمع الذى يقوم على ثلاث دعائم : العدالة السياسية ، وتسمى الديمقراطية ، والعدالة الاقتصادية ، وتسمى الاشتراكية ،

والعدالة الاجتماعية ، وتعنى محو الطبقات التقليدية التى عرفها تاريخ الصراع الطبقي عبر العصور وأزداد تبلوراً وحدة منذ النهضة الصناعية فى القرنين الأخيرين .. والعدالة الاجتماعية ، الى حد كبير ، تجىء كنتيجة للمساواة فى السلطة والمساواة فى المال .. الديمقراطية والاشتراكية .. ثم هى أثر مباشر من آثار التربية الفردية الكاملة .

ثم ان هذا المجتمع الكامل ، فوق ماذكرنا ، تقسم علائق افراده فى القاعدة على قانون دستورى ، وفى القمة على رأى عام سمح ، لا يضيق بانماط الشخصيات المتباينة ، لأنه يرمى الى تربية الفرد الذى ينماز عن القطيع بأصالة وبفردية .

والقانون الدستورى ، فى الفكر الاسلامى ، هو القانون الذى يملك التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وهكذا لا يضحي بالفرد فى سبيل الجماعة ، ولا يضحي بالجماعة فى سبيل الفرد ، وانما هو قسط موزون بين ذلك .. يحقق حين يطبق ، بكل جزئية من جزئياته ، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فى آن معا ، وفى سياق واحد ، ولقد ضربنا لذلك مثلاً بقانون حد السرقة .

والفرد الذى يحقق السلام مع نفسه هو المسلم الذى قال عنه المعصوم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « المسلمون » هنا تفهم بالمعنى العام ، وتعنى الناس كلهم ،

فالمسلم تسلم كل الخلائق من لسانه ويده ومن خواطر ضميره
المغيب . ولقد قال المعصوم أيضا « الاسلام قيد الفتك » ويعنى
أن المسلم غير فتاك ، لا بجارحة ولا بخاطر يتحرك في ضميره فيه
نية الفتك ، ولذلك فقد قال المعصوم « سوء الخلق ذنب لا يغتفر
وسوء الظن خطيئة تفوح » وقال « كل المسلم على المسلم
حرام .. دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء » .

وانت ، اذا فهمت سعة احاطة الحديث في هذا المستوى ،
علمت ان المسلم فى عبارة « كل المسلم » تعنى المعنى العام ، وهو
مطلق خلق الله ، من الشجر والحجر والمدر ، والى ذلك الاشارة
بقوله تعالى « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات
والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ » وعلمت ان المسلم في
عبارة « على المسلم » تعنى المعنى الخاص المقصود من قوله تعالى
« الا من اتى الله بقلب سليم » سليم من الانقسام بين سيرة معلنة
تخالف سريرة مبطنة ، أو قل سليم من دقائق الرياء الاجتماعى ،
الذى هو آفة اكابر العارفين . فالقلب السليم هو القلب « السلام »
هناك حديث يقول « لكل شىء قلب ، وقلب القرآن يس ،
ويس لها قلب » ولقد عرف العارفون أن قلب يس قوله تعالى
« سلام قولا من رب رحيم » فكان السلام في الاسلام ، هو
خلاصة الخلاصة ، وأصل الاصول ، وعبارة « السلام عليكم »
هى تحية المسلم حين يلتقى الناس في جميع أوقات يومه .. هذه

العبارة الرائعة ، المشرقة الحروف ، الحلوة الجرس ، قد أنى لها أن تطبق في واقع الناس اليومى تطبيقا عمليا ، تتخذ له وسائله الصحائح ، لكى يحل في الأرض السلام ، وفى قلوب الناس المحبة ، وعلى وجوههم طمّح البشر والمسرة .

الحرية الفردية المطلقة ..

في الاسلام الأصل الحرية .. فكل انسان من حيث انه انسان .. هو حر الى أن يسيء استعمال الحرية فتصادر حرته ، حينئذ ، وفق قوانين دستورية ، وقد تحدثنا عن القوانين الدستورية في الاسلام قبل قليل .

فالحرية حق يقابله واجب .. هذا الواجب هو حسن التصرف في الحرية .. والحرية لا حدود لها ، الا حيث يعجز الحر عن التزام واجبها ، فتصبح محدودة بطاقته على الالتزام .. وفي الحق ان الحرية الفردية في الاسلام مطلقة ، على أن تؤخذ بحقها .. وحقها كما قلنا حسن التصرف فيها ، ولا يستطيع ان يأخذها بحقها الا من جود العبادة ، وأوفى في ذلك بوصية المعصوم حين قال « تخلقوا باخلاق الله ، ان ربي على سراط مستقيم » فمن تخلق باخلاق الله فقد سار من المحدود الى المطلق ، فاحرز من استقامة السيرة ، وسلامة السريرة ، ما يجعل نتائج عمله كلها خيرا وبراً بالاحياء والاشياء ، حتى لا يكون للقوانين عليه من سبيل .

لقد ظهر من الآيات التي سقناها آتقا ان الفرد في الاسلام هو مدار التكليف ، وقلنا ان التكليف هو العبودية ، ونقول هنا ان الرسل لم ترسل ، وان الكتب لم تنزل ، الا لتعين الفرد على القيام باعباء تكليفه .. « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » او « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين » ونقول أيضا ان الفرد من رجل أو امرأة هو الغاية وكل ماعداء وسيلة اليه ، بما في ذلك الأكوان والقرآن « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد ؟ » .

فاذا كان القرآن وسيلة الفرد وهو بلا ريب كذلك ، فقد اصبح جميع التشريع وسيلته كذلك ، ومن باب أولى .. واعظم تشريع طوع لانجاب الفرد الحرية فردية مطلقة تشريع الصلاة .

الصلاة وسيلة ..

والوسيلة دائما من جنس الغاية .. فهي طرف منها ، والاختلاف بين الوسائل وغاياتها اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع ، ولا يمكن لدى النظر السليم التوصل الى الغايات الصحاح بالوسائل المراض .

والصلاة التي هي وسيلة ، الصلاة الشرعية المألوفة ، في الحركات المعروفة والاقوات ، وهي وسيلة الى المقام الذي يكون فيه الفرد في صلة تامة ، وجمعية شاملة بربه ، والقرآن في هذا

الباب لا يحوجنا الى طويل تفكير ، فهو حاسم وقاطع .. فاسمعه وهو يقول «واقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم ماتصنعون » واسمعه يقول .. « واقم الصلاة لذكرى » وذكر الله في هذه الآية ، وفي سابقاتها الحضور مع الله بلا غفلة ، ووسيلته الصلاة .. واسمعه يقول .. « فاذكروني اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون * ياايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، ان الله مع الصابرين » والصبر هنا يعنى الصوم ، وانما تكون الاستعانة بالصوم والصلاة على دواعى الجيلة الى الغفلة عن الله ، وهو راجع الى أن الصلاة وسيلة الى ذكر الله بلا غفلة عنه .

ويقول الله تعالى لنبيه « فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، وأطراف النهار ، لعلك ترضى * ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزولجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » وسبح هنا تعنى صل وفي هذه الآية أوقات الصلاة الخمسة وهى : قبل طلوع الشمس الصبح ، وقبل غروبها ، الظهر والعصر .. وكذلك عبارة أطراف النهار .. ومن آناء الليل ، المغرب ، والعشاء ، هذا الى جانب أن الآية تعنى أيضا بالتسبيح الذكر والتزنية ..

وعبارة « لعلك ترضى » تجعل الصلاة وسيلة الى الرضا

بصورة لا لبس فيها ولا غموض ، والرضا بالله رباً نتيجة تمام المعرفة به ، وتمام المعرفة بالله ثمرة ذكره بلا غفلة ولا انقطاع .. والرضا بالله رباً يعنى ترك التمنى ، ومما يؤثر عن الحسن بن على أنه قال « من وثق بحسن اختيار الله له ، لم يتمن غير الجالة التى هو فيها » ولذلك قال تعالى وهنا « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » يعنى لا تتمن ، وارض بما قسمه الله لك ، ثقة بحسن تدبيره ، واستعن على حالة الرضا هذه بالصلاة .

الرضا بالله عبودية ..

قلنا ان الصلاة وسيلة ، وقررت لنا الآيات السوالم هذه الحقيقة . وظهر انها وسيلة الى ذكر الله « وقلنا ان ذكر الله هو الحضور معه بلا غفلة عنه ، وثمره الذكر بلا انقطاع ولا غفلة تمام المعرفة بالله وثمره تمام المعرفة الرضا بالله ، وعاقبة الغفلة عن الله السخط عليه ، وادق مظاهر السخط على الله التمنى ، وهو مانهت عنه الآية الكريمة المعصوم ، والرضا بالله مجاهدة فى مقام العبودية ، فان العبد لا يزال يجاهد دواعى طبعه الى السخط على الله ، وعدم الرضا به فى دقائق صور السلوك جميعها ، حتى يرضى الله تعالى عنه ، فينتقل من مرتبة النفس الراضية الى مرتبة النفس المرضية وهى النفس التى لا يلقيها الله الا ماتحب .. وفى الحق ، ان النفس لا ترضى عن الله تمام الرضا وهى تلقى من الله

ما تكره ، ولذلك فقد عبر تعالى عن حالة المرضيين عنده بقوله « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » ولما كان الانسان لا يشاء ما يكره ، ولا يرضى ان تتخلف مشيئته ، فقد انجز الله لهم مشيئتهم ، والى ذلك الاشارة بقوله « لهم ما يشاءون فيها » ثم لما كانوا مرضيين من الله لطول مارضوا بالله مد لهم الله علما به متجددا .. به تتجدد مشيئتهم فترتفع الى مستوى منجزات جديدة من المطالب الرفيعة ، التى تستجاب فور بروزها الى منطقة الفكر ، أو الى منطقة القول ، والى ذلك الاشارة بقوله « ولدينا مزيد »

فاذا أحسن العبد التوسل بوسيلة الصلاة اعاقته على الدخول فى مقام الرضا بالله ، فاذا أحسن السلوك فى مراقبه بالمزيد من اتقان الصلاة دخل فى درجات العبودية . ولمقام العبودية بداية ، وهو مقام النفس الراضية ، وليست له نهاية لانه فى ذلك كالرؤية لايتامى . والعبودية هى التكليف الأصلى ، والعبادة هى التكليف الفرعى ، وبعبارة أدق .. العبادة هى الوسيلة ، والعبودية هى غاية العبادة .. وهذا ماتفيده الآية : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ومعناها ما خلقت الجن والانس الا ليصيروا لى عبيدا بوسيلة العبادة . وبعبارة أخرى ، ما خلقت الجن والانس الا ليعبدونى كما أمرتهم على السنة رسلى ، ليصيروا بتلك العبادة لى عبيدا كما أمرتهم على لسان ذاتى ، وذلك

حين قلت في مقام عزتى « ان كل من فى السموات والأرض الا
أتى الرحمن عبدا * لقد احصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية
يوم القيامة فردا » .

العبودية هى الحرية ..

الرضا بالله رباً مدخل على العبودية « كما سلف القول ، ومن
رضى بالله آثره على نفسه فاطرح مايريده هو رضا بما يريد
سيده . فقد قال أصحابنا « العبد موجود لسيده ، مفقود لنفسه »
وقالوا « حقيقة العبد أن يكون بين يدى الله كالميت بين يدى
الغاسل ، يقلبه كيف شاء بلا اعتراض منه عليه » فالعبد لله لا يقوم
بخطئه اعتراض على ارادة الله ، فاذا قام لا يلبث أن يراجعه
بالمراقبة أو بالمحاسبة ، ولا تستجيب النفس لهذا المقام الا اذا بلغ
علمها حق اليقين ، فاطمأنت وسكنت ، لأستيثاقها ان الله أعلم
بمصلحتها منها ، وانه تعالى أقدر منها على توصيل المصلحة اليها ،
وانه أرحم بها منها ، وأنه أولى بها منها ، من جميع الوجوه ،
ولا يتفق هذا للنفس الا بتوفيق الله ، ثم بأدمان الفكر ، وبطول
المران والرياسة والمجاهدة ، وباتقان العبادة بتجويد تقليد
المعصوم ، وبالسلك العملى فى حسن معاملة الناس ، والسعى فى
مصلحتهم ، حتى تجود « لا اله الا الله » تجويد تفريد ، فى اخلاص
النية وحسن العمل وصفاء الفكر ، « اليه يصعد الكلم الطيب ،
والعمل الصالح يرفعه » « والكلم الطيب » « لا اله الا الله »

« والعمل الصالح » الصلاة ، والصلاة تعنى المعاملة - المعاملة مع الرب بعدم الغفلة عنه .. والمعاملة مع الخلق بكف الاذى عنهم واحتمال الاذى منهم ، ثم بالاخلاص والنصح لهم وذلك بتوصيل الخير اليهم في المنشط والمكروه ..

« الا لله الدين الخالص » الخالص من حظوظ النفس . فهو لا يقبل غيره ، ولما كانت حظوظ النفوس كثيرة في حب المال والبجاه والسلطة ، فقد زهد الزاهدون في كل أولئك لتقل حاجتهم منها ، ولتقتصر تلك الحاجة على الكفاف ليجرؤوا بذلك اخلاص قلوبهم لله .. فهم يرون ان الحاجة رق ، وأنت كلما زادت حاجات نفسك كلما زاد رقتك لتلك الحاجات ، وانت بذلك لا تكون خالصة لله ، ولا يكون دينك خالصا لله ، وهو لا يقبلك في رقه : فى عبوديته .. حتى يتم عتقك من اسبيادك التقليديين : العادات والأوهام والأباطيل ، التى تجعل الرجال والنساء عبيدا للشهوات والمطامح .

اننا قد تعلمنا أن الحياة تواجهنا بالخير والشر . والشر يتمثل فى الألم : الخوف والجوع والمرض والموت .. والخير يتمثل فى اللذة : الأمن والشبع والصحة والحياة .. وقد دفعنا الخوف من الألم ان نستكثر من اللذة : ومن وسائل اللذة ، حتى نجعل بيننا وبين مايؤلمنا امدا بعيدا ووقاية حصينة ، ومن ههنا جاء السعى وراء المال والحرص على اكنازه ، وجاء حب الحياة والتعلق باسباب السلطة .

ولقد دلت التجربة البشرية الطويلة ان الشر لا يمكن الاحتراز عنه والاعتصام منه بوسائل الحرص والجمع والاستكثار من الحطام ولا من الجاه والسلطان ، ذلك بان الموت الذى هو قمة الشرور لم تنجح في توقيه حيلة المحتالين بوسائل الجمع ووسائل المنعة .

« اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » وفى الاسلام ابليس هو الشر المجسد ، وأعوانه من ابنائه ينشرون الخوف في قلوب الناس ويصدونهم عن السبيل ، « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » ، « يعدكم الفقر » يعنى يخوفكم عواقب البذل « ويأمركم بالفحشاء » يعنى البخل والحرص والكنز ، وهذا الشر المجسد ، يحدثنا القرآن عن شأنه مع عباد الله فيقول « قال رب بما أغويتنى لآزبن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين * الا عبادك منهم المخلصين * قال هذا سراطى على مستقيم * ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين .. » قال ابليس « لآزبن لهم في الأرض » يعنى لاجبن لهم البقاء في الأرض ولا بفضن لهم الموت . وبعب الحياة وبفض الموت تكون كل الشرور والمآثم الاخرى ثم استدرك فقال « الا عبادك منهم المخلصين » لعلهم ان هؤلاء لا ينطلى عليهم مكروه ، فقال الحق في تأكيد ذلك « هذا سراطى على مستقيم » : أى حق أوجبه على هسى .. وما هو ذلك الحق ؟ « ان عبادى ليس لك عليهم

سلطان « هم احرار من سلطان كيدك وتضليلك وتليبك ..
والحرية من كيد ابليس اشارة الى الحرية من أصل الشرور وهو
الخوف .

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم
الشیطان ببعض ماكسبوا » استزلهم ساقهم الى الزلل ، وهو انما
يستزلنا ليسوقنا الى الذل في ظل الخوف .. والخوف هو الشر
كله وابليس هو تجسيد الخوف .

ولقد جعل الاسلام وكده محاربة الخوف و « رأس الحكمة
مخافة الله » تعنى ان بداية العلم ان تجمع مخاوفك كلها من الله
وحده ، لانه قال « قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا ، هو مولانا
وعلى الله فليتوكل المؤمنون » والكلمة وهى « لا اله الا الله »
التى هى نهج الاسلام ، تعنى توحيد الخوف في مصدر واحد بعد
ان كان يأتى من كل جانب ، وفى توحيد الخوف قيمة تربوية
عظيمة .

ثم أن العبد يعطرب خوفه من مصائب الحياة بالمجاهدة على
الرضا بالله كما سبق أن قلنا ، يقينا منه بأن الله أعلم بما يصلحه
منه ، وان المصائب حين تساق اليه انماهى صديق في الحقيقة ، فى
ثياب عدو فى الظاهر فقط ، وذلك لقصور علمنا ، « كتب عليكم
القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،
وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون »

فاذا اتقنا المجاهدة في موطن الرضا ايقانا منا بأن شدة المصائب التي يسوقها إلينا ربنا انما هي بمثابة مرارة الدواء الذي يكون فيه برء ادوائنا ، فان عناية الله تدركنا فتنقلنا بما تفتح لنا من فيوض المعرفة بالله الى منازل لا يتصور فيها بلاء ، حيث نكون في مرادق الرضا ، فلا نلقى شيئاً مما فكره ، وسبقت الى هذا الاشارة قبل قليل في هذه الرسالة .

فالعارف المجود للمعرفة ، السالك في مدارج العبودية لا يخاف شيئاً على الاطلاق .. هو لا يخاف الله لان الله عند العارف المجود يحب ، ويطمان اليه ، ويرتع في بحبوحه أنسه .. نعم هناك ظل من الخوف خفيف ، وذلك عندما يمد العارف نظره الى الاطلاق ، ولكن هذا الخوف هو نتيجة المعرفة ، ونحن نتحدث آتقنا عن الخوف الذي هو نتيجة الجهل .. فالخوف الذي هو معرفة ، هو أعلى ما تبلغ معرفة العارفين ، وعنده النعيم المقيم والخير المطلق ، وبه المزيد المستمر ، لان العارف فيه يتحقق بقوله تعالى « كل يوم هو في شأن » وشأنه تجديد حياته كل لحظة بانطلاقه في التطور ، بالاستزادة من كمال حياة الفكر وحياة الشعور ، وهو في ذلك ينشر الخير بين الناس كما تنشر الزهرة المطار شذى عرفها .

أن العبودية هي الحرية .. لأنها حرية من الخوف . ووسيلة العبودية العبادة ، وفي قمة العبادة الصلاة .

ان الحديث هنا يقتضى فهم القرآن فهما جيدا ، وللاعانة على هذا الفهم لابد من تقرير امور أربعة :-

أولها ان الاسلام بداية ونهاية ، وهو في البداية أقل من مرتبة الايمان ، ومقتضاه قولك : لا اله الا الله محمد رسول الله : وعملك بالجوارح فيما امرت بالعمل فيه من عبادات ، ومن معاملات ، وآية الاسلام الذى هو بداية من كتاب الله : « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا !! ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

والاسلام الذى هو نهاية ، أعلى من مرتبة الايمان ، ومعناه الاستسلام والانقياد الواعى الراضى بالارادة الالهية ، وآيته من كتاب الله : « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً ؟ » وروح هذه الآية في عبارة « وهو محسن » لان العناصر كلها مسلمة وجهها لله ، ولكنها غير واعية ، والمسلم هو الذى يكون فى تمام استسلامه لله كالعناصر الصماء في عدم اعتراضه على الله ، ثم هو واع وراض ومختار لهذا الاستسلام ، ومن هنا قيل ان العبودية أن تكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء ، من غير اعتراض منه ، ولقد اسلفنا الاشارة الى ذلك . وثانيها أن مجتمع البعث الأول اسمه الخاص به «المؤمنون» ،

عندما يوضع بازاء المجتمع اليهودى أو المجتمع النصرانى ،
والقرآن ملىء بذلك . « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ،
والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وانه
لم يأخذ اسم المسلمين الا من المعنى العام .. من الاسلام الذى
هو بداية .. ولقد ندب مجتمع المؤمنين ليكونوا مسلمين فلم
يطبقوا ، وذلك حيث قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق
تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ، فنزل الى مستوى
مايطبقون ، وجاء الخطاب « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ،
واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم
المفلحون » .

وثالثها أن المجتمع المسلم حقا لم يدخل فى الوجود بعد ، وسيجىء
في مستقبل الايام القريبة ان شاء الله ، حيث تقوم المدنية الجديدة
التي تحدثنا عنها هنا ، وفيها يبلغ ساير الافراد مرتبة الاسلام ،
وهى مرتبة لم تتحقق في المجتمعات الماضية الا للانبياء ، وحتى
هؤلاء قصر عنها بعضهم كما يحدثنا القرآن : « انا انزلنا التوراة
فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين اسلموا ، للذين
هادوا ، والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله ،
وكانوا عليه شهداء » ولسنا نريد الاطالة هنا لاننا سنصدر سفرا
مستقلا في هذا المعنى ، وسيكون عنوانه « العهد الذهبى

للاسلام امامنا » ولكننا نحب ان نقول اننا سنفهم القرآن فهما
أحسن من ذي قبل اذا عرفنا أنه عندما يخاطب المؤمنين انما يخاطب
مرحلة معينة من مراحل سير الأمة الحاضرة نحو الأمة الإسلامية
المستقبلية ، وهو حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق
تقاته ولا تموتن الا وאתم مسلمون » انما يطلب ان يرتقى أفراد
المجتمع المؤمن ، من مرحلة الايمان ، الى مرحلة الاسلام ، وهو
بذلك يدعو الى التطور المستمر في مراقى الكمال والتجديد ،
ولا يقر الناس على الثبات في مرتبة واحدة .

ورابع الامور التي لا بد من تقريرها لتعين على فهم القرآن
هو ان القرآن كله مثنى .. كل آية فيه وكل كلمة بل وكل
حرف .. والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « الله نزل أحسن
الحديث كتابا متشابها ، مثنى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون
ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله
يهدى به من يشاء ، ومن يضل الله فما له من هاد » ومعنى مثنى
انه في معنيين اثنين معنى بعيد عند الرب ، ومعنى قريب ، تنزل
من الرب الى العبد ، وعلى مستوى هذا الفهم للقرآن تحدثنا
آنفا عن آية « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فقلنا الا
ليكونوا لى عبيدا بوسيلة العبادة .. فكان لكلمة « ليعبدون »
معنى بعيدا هو العبودية ، ومعنى قريبا هو العبادة .
ومن مستوى هذه الامور الاربعة ، التي قررناها ستحدث

عن الصلاة ، وما يتبعها ، فيما يلي من بقية هذه الرسالة .

للصلاة معنيان ..

فالصلاة لها معنى بعيد ، ولها معنى قريب .. ولقد خرجت الصلاة يوم المعراج على مستويين من مستويات شهود النبي ربه ، والقرآن يقص علينا هذين المشهدين فيقول : « علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنى فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فاوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * افتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * اذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

فأما المشهد الأول فهو مشهد اسمائي ، وأما المشهد الثاني فهو مشهد ذاتي .. يقول تعالى عن نفسه « كل يوم هو في شأن » وشأنه إبداء ذاته لعباده ، وهذا الإبداء إنما هو تنزل من بهموت الذات إلى مراتب العباد ليرقوا في معارج هذه التنزلات إلى حضرة الذات .. فإله تعالى يقول عن تنزلاته إلى عباده : « وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ، ونزلناه تنزيلاً » فالقرآن هو الذكر في مقام الجمع ، والفرقان هو الذكر في مقام الفرق .. ومقام الفرق هو التنزلات إلى مرتبة الصفة ومرتبة الفعل ، وإلى هذه المراتب الإشارة بقوله « ونزلناه تنزيلاً » يعني

تنزيلا من بعد تنزيل في المراتب لتكون للعارفين معارج يطوون فيها المراتب ، مرتبة بعد مرتبة ، حتى يقفوا على عتبة الذات .

« وبالحق انزلناه ، وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا » « وبالحق انزلناه » يعنى الذكر . وانزلناه الى مقام الجمع وهو القرآن . « وبالحق نزل » الى مقام الفرق ، وهو الفرقان . . والذكر في مقام جمع الجمع ، وهو مقام الاسم مما يلي الذات ، والقرآن مقام الجمع ، وهو مقام الاسم مما يلي الصفات ، والفرقان مقام الفرق ، وهو التعدد ، وادناه الثنائية ، وهو مقام الصفة ومقام الفعل . . ومقام الفعل اعلاه مقام توحيد ، وادناه مقام شرك — مقام تعدد — وذلك عند بروز الاكوان من المكون بآثر الفعل . . فمن شغلته المخلوقات عن الخالق فهو مشرك ، ومن رأى من وراء فعل المخلوقات فعل الله فهو موحد ، وفي الحق ، ان التوحيد كله في مقام « وحدة الفاعل » ، وهو ما عيناه بعبارة « رأى من وراء فعل المخلوقات فعل الله » .

والرسالة تنزل الى ادنى درجات التعدد ، وخاصة في وجهها الجلالى . . وجه الانذار . . وغرضها جمع الناس على الله من التفرق في التعدد ، والى ذلك تشير عبارة « وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا » .

والتوحيد كله في مرتبة وحدة الفاعل ، لأنها مرتبة الشرك الخفى . . ولن يخلص العبد من الشرك الخفى اطلاقا ، لانه يدق

حتى يصبح أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ثم لا ينتهى ، وهو
الحجاب القايم بين الوحدة المطلقة ، التى هى حظ الرب ، والوحدة
النسبية التى هى حظ العبد .

ومرتبة الفعل هى مرتبة « الواحدية » ، والواحدية صفة
الاله : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » وفي
الحق ، ان الناس لم يجحدوا الله وأنما جحدوا الاله ، وهو تنزل
الله الى مرتبة الفعل في المستويات الصغيرة التى يقع الشبه فيها
ويسود اللبس .. وهذه هى مستويات الشرك الخفى عندما
تتداعى الى الخفاء .. اسمع القرآن يحدثنا في هذا المعنى : « ولئن
سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ،
ليقولن الله ، فأنى يؤفكون * الله ييسط الرزق لمن يشاء من
عباده ويقدر له ، ان الله بكل شىء عليم » كأنه يقول : ان الاعمال
الكبيرة الظاهرة التى يستحيل عليهم ان يشاركوا فيها ، كخلق
السموات والأرض ، ينسبونها لله ، ولكن الاعمال الصغيرة التى
لهم فيها في ظاهر الامر مشاركة ينسبونها لانفسهم .. أو كأنه
يقول : اذا سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون خلقهن
الله ، واذا سألتهم من يرزقكم يقولون سمينا واجتهادنا — ان لم
يكن قولهم هذا بلسان مقالهم ، فانه على التحقيق ، قولهم
بلسان حالهم .

وكل الشرك في مسألة الرزق ، ولقد قال العارفون ان

الانسان يفر من أجله ، ويجرى وراء رزقه ، وفى الحق ، ان
الاجل والرزق يطلبان العبد طلبا حثيثا ، وهو لن يعجز أجله هربا ،
وهو لن يعجز رزقه هربا بنفس القدر .. فاذا تم يقين العبد
بالرب ، يعلم ان ما قدر لماضيه ان يمضاه لابد أن يمضاه ، وان
هرب منه .

فالآية الثانية تخبرنا أن الذى خلق السموات والأرض هو
نفسه الذى يسط الرزق للعباد .. فالخالق واحد لكبير الأعمال
وصغيرها .. اسمعه يقول « ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه
فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شئ ، وهو الواحد القهار » .
ومرتبة وحدة الفاعل أول مراتب تجليات الذات مما يلي
العبد .. أو قل هي أول مراتب العروج الى الله ذى المعارج .
والمرتبة التى تلى وحدة الفاعل هي وحدة الصفة وهي مرتبة
« الاحدية » والاحدية صفة الله « قل هو الله أحد » والمرتبة
الثالثة وهي التى تلى مرتبة وحدة الصفة هي مرتبة وحدة الاسم ،
وهو « الله » وليس وراء هذه المرتبة الا الذات الصرفة .

ومعنى الواحد الفرد الذى لا ينقسم ، وهو أول مراتب
التفريد .

ومعنى « الاحد » .. الذى لم يجرى من مثله ، ولا يجرى
منه مثله ، أو هو الذى « ليس كمثله شئ » وهو أوسط مراتب
التفريد .

ومعنى « الله » .. الذى يجل ، ويتعالى ان يكون له معنى ، ولكنه ، مما يلي الخلق ، هو متعلق الصفات ومما يلي الذات ان هو الا إشارة الى الذات الساذج ، الصرف ، التى تجل عن أن تسمى ، أو أن توصف .

ومعنى أنه متعلق الصفات ، انه علم على اول تنزل من صرافة الذات ، وهو اعلى مراتب التقريد . وهذه المراتب الثلاث ، وعديد المراتب التى دونها ، هى من جهة الذات تنزل ، ومن جهة العبد معراج ، فالمعراج تنزل درجات سلم الذات ليرقى عليها العبد درجة ، درجة . والمعراج قطع هذه الدرجات ايضا ، وقد قلنا ان النبى فى المعراج شاهد ربه على مستويين ، فاما الشهود الاول ، فهو شهود اسمائى ، واما الشهود الثانى ، فهو شهود ذاتى .. والشهود الاسمائى هو هذا الذى فصلناه فى المراتب الثلاث .. فالشهود الاسمائى هو شهود تجليات الذات فى الخلق فقد شاهد النبى التجليات الالهية فى جبريل . والقرآن يقص علينا فى هذه الآيات من سورة « والنجم » وقد اوردناها آنفا .. « علمه شديد القوى ■ جبريل « ذو مرة ، فاستوى » وصف لجبريل بالشدة ، ومعنى « فاستوى » فى صورته التى خلقه الله عليها ، وهى أعلى ما يكون جبريل مظهراً للتجلى الاسمائى ، والى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وهو بالأفق الأعلى » مما يلي الذات « ثم دنى فتدلى » تنزل فى التجلى الاسمائى الى مرتبة الصفة ثم الى مرتبة الفعل ، حيث استقر « فكان قاب قوسين

أو ادنى » . وفي هذا الثالوث إشارة لطيفة الى العقل ، لا يتسع المقام لاستقراءها ، « فاوحى الى عبده ما اوحى » : فاوحى جبريل الى عبد الله محمد ما أوحى .

هذا التفصيل فيما يخص المشهد الاسمائى . واما المشهد الذاتى فقد أخفى فى سياق عبارات القرآن ، لانه فوق العبارة ، ولا تسعه الا الإشارة . وقد جاءت عبارة ، هى نهاية فى الدقة ، وفى الإيجاز ، وفى القيمة السلوكية للمساكين لتشير الى هذا الشهود الذاتى إشارة سلوكية ، وتلك هى آية « مازاغ البصر وما طغى » ولما كانت سدرة المنتهى هى نهاية الشهود الشفعى ، أو « الثنائى » وبداية الشهود الوترى أو « الفردى » فقد اخبرنا القرآن عن ذلك فقال : « اذ يغشى السدرة ما يغشى » من طرف التجلى الذاتى ، بلغ النبى مقام « مازاغ البصر وما طغى » ، والبصر هنا والبصيرة شىء واحد ، لأن هذا مقام التوحيد ، وهو يعنى الفكر و « مازاغ » يعنى ما رجع فانشغل بالماضى ، و « ما طغى » يعنى ما انشغل بالمستقبل ، فكان النبى ، من فرط ما غشيه من الشهود الذاتى ، قد استغرق ، واخذ من جميع اقطاره ، حتى أصبح وحدة ذاتية ، فى وحدة مكانية ، فى وحدة زمانية ، وبهذا التوحيد ، الكامل الشامل ، خرج عن الزمان ، والمكان وتحرر منهما ، فشاهد من ليس يحويه المكان ، ولا الزمان .. شاهد الله ، شهودا ذاتيا ، ليس للعبارة فيه مجال . وهنا فرضت الصلاة بمعناها البعيد .. فرضت بلسان

الحال ، لأن لسان المقال هنا أخرس • ولم يكن جبريل حاضراً هذه ، وإنما كان جبريل حاضراً فرض الصلاة بالمعنى القريب • والصلاة ، بالمعنى القريب ، هي الصلاة الشرعية ، ذات الحركات المعروفة • ولقد فرضت في مقام « قاب قوسين أو أدنى » وهو مقام الشهود الاسمائى ، والشهود الاسمائى وسيلة الى الشهود الذاتى • فان العبد المترقى يشاهد وحدة الفعل ، ثم يترقى منها الى شهود وحدة الصفة ، ثم يترقى منها الى شهود وحدة الاسم ، وليس وراء ذلك الا شهود الذات ، وليس في شهود الذات مقام ، وإنما هي المامة خاطفة ، وجمعية مستفرقة ، ينادى عندها منادى الطبيعة البشرية « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » • ثم يكون تنزل العبد راجعاً في درجات معراج ، فيكون مما يليه ، في حالة التنزل ، شهود وحدة الاسم ، ثم وحدة الصفة ، ثم وحدة الفعل ، فكأنه شاهد ، في العروج ثم في التنزل بعد العروج ، كل مشهد مرتين ، ولكن بصورتين مختلفتين ، لأن التكرار ممتنع في تلك المقامات ، فانه « كل يوم هو في شأن » • وكل المشاهد ، في حالة التنزل ، أعظم منها في حالة العروج ، ولذلك فقد فرضت الصلاة خمسين في مقام « قاب قوسين أو أدنى » في حالة المعراج ، وخففت الى خمس في مقام « قاب قوسين أو أدنى » في حالة التنزل من المعراج ، والسر في التخفيف ، ان النبى بعد شهود الذات أصبح اعرف بالله منه قبلها ، والعارف مخفف عليه دائماً ، على قاعدة ،

« ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليهما ؟ »

في مقام الشهود الذاتي فرضت الصلاة بالمعنى البعيد ، وهي الصلة مع الله بلا واسطة ، في مقام « مازاغ البصر وماطنى » ، حيث تطمس من العبد ذاته المحدثه ، وتبقى ذاته القديمة في صلة مع القديم ، لا يفصلها وسيط ، ولا تقوم بينهما وسيلة ، وهناك تسقط الوسائل والغايات ، ولا يبقى الا الواحد ، « وليس لسفن العبارة ههنا نصيب » . ولم يكن جبريل حاضراً ، لانه لا مقام له في شهود الذات ، وذلك لانه لا ذات له — لانفس له — بها يطبق انوار التجلى الذاتى ، وهذا ما جعل ساير البشر ، في مآلهم ، اكمل من خاصة الملائكة .. فكمال الملائكة على البشر كمال درجة ، وكمال البشر كمال نشأة ، وهذا معنى قول المعصوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » .

وجاء تخلف جبريل لسبب آخر ، هو أن وجود جبريل يجعل النبى شفعا ، ولا يصلح الشفع في مشاهدة الوتر . وفي مقام الشهود الاسمائى فرضت الصلاة بالمعنى القريب .. الصلاة الشرعية ، وقد كان جبريل وسيطا فيها ، وقد جاء بكيفيتها ومواقيتها ووضوئها الى النبى في مكة ، وعلمه كيف يصلى .. وليس معنى هذا أن النبى لم يكن على صلاة قبل المعراج ، بل انه ، على التحقيق ، قد كان على صلاة قبل البعث « منذ ان كان

يتحدث في غار حراء ، ولكن صورة صلاته القديمة صحت بعد
المعراج ، فجاءت الصلاة التي نعرفها اليوم « وجعلت معراجا ، له
بالاصالة ، ولأتمه بالتبعية . » وهي معراج الى المقام المحمود ،
الذي قامه بين يدي ربه في مشهد ، « مازاغ البصر وماطفى » .
وقد قال تعالى في حق نبيه « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ،
عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا » .

التقليد

« صلوا كما رأيتموني أصلي » !! هكذا امر النبي في تبليغه
رسالة ربه . فالصلاة معراج النبي بالاصالة ، ومعراج الامة
من بعده بالتبعية ، والتقليد .. وكلمة « رأيتموني أصلي »
لها معنى بعيد ، ومعنى قريب .. فاما معناها البعيد ، فهو ان
نرى بعين البصيرة حالة قلب النبي من صدق التوجه ، حين يقوم
لصلاته . فهو حين يقول الله اكبر ، في احرامه ، لا يكون في قلبه
اكبر من الله ، لانه حرر نفسه من علائق الدنيا بتقليل حاجته
منها ، وبزهد فيه ، وهذا ما اشرنا اليه آنفا في مقام العبودية
واما معناها القريب ، فهو ان نرى بعين البصر حركات النبي
الظاهرة في صلاته فتتقنها أيضا .. فنحن بدون ان نراه بعين
البصيرة وبعين البصر .. وبعبارة أخرى بدون ان نعرف حالة
قلبه ، وحركات جسده ، لا نكون قد رأيناه .. واذا صلينا
بمحاكاة حركات الجسد ، بدون محاكاة صدق توجه القلب ،
لا نكون اطعنا عباره « صلوا كما رأيتموني أصلي » وآفة

صلاتنا الحاضرة اننا ذهلنا عن هذه الرؤية المزدوجة ، فاصبحتنا
نتقن حركات الصلاة ، ولكن قلوبنا شاردة • فنحن ، حين نقوم
باجسادنا في مساجدنا ، نكون بقلوبنا في السوق ، أو في الشارع
أو في الاماكن العامة •• ونحن ، حين نقول الله اكبر في احرامنا
يقول مناد من قبل الحق كذبتهم •• لستم بها صادقين •• وانما
المال اكبر ، أو الجاه اكبر ، أو السلطة اكبر من الله في قلوبكم •
وبذلك لا تكون صلاتنا صلاة ، ويحق فينا قوله تعالى :
« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » الذين هم
يراؤون ويمنعون الماعون » سماهم المصلين ، لأن حركاتهم
حركات مصل • ثم قال فيهم انهم عن صلاتهم « ساهون » يعنى
غافلون عن حقيقة صلاتهم ، وهى التى تقوم فيها الصلة بين الله
وبينهم وذلك بحضور قلوبهم فيها •• ولذلك قال « الذين هم
يراؤون » أى يهتمون بالظاهر ويهملون الباطن « ويمنعون
الماعون » • والماعون يعنى القلب •• يمنعون من الله ان يكون
فيه ، ويملاونه باصنام حب الجاه والمال والسلطة •

وقد قال المعصوم : « رب مصل لم يقم الصلاة » !! هو
مصل ، حسب ظاهر حركاته ، ولم يوف الصلاة حقها بحضور
القلب فيها ، فكأن صلاتك فى صلاتك هى حضورك مع ربك فيها ،
طال هذا الحضور ، اثناء صلاة الحركات ام قصر ، وليس ماعدا
ذلك صلاة ، وان كان قيام الليل كله •

ويحدثنا القرآن فيقول « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى

يحببكم الله » فهل يظن أحد ، انه يمكن ان نحوز حب الله ، اذا
 أتبعنا النبي في ظاهر أمره من الحركات والسكنات ، ثم أهملنا
 الاتباع الباطنى ؟؟ ويقول القرآن « ما آتاكم الرسول فخذوه
 وما نهاكم عنه فانتهوا » وكذلك الفهم هنا .. فان الرسول آتانا
 بالمعنى القريب ، وبالمعنى البعيد .. أما بالمعنى البعيد ، فقد
 آتانا أشياء بلسان حاله ، وأما بالمعنى القريب ، فقد آتانا أشياء
 بلسان مقاله .. فما آتانا إياه بلسان حاله ، فهو سنته ، وما
 آتانا إياه بلسان مقاله ، فهو شريعته .. ولسان مقال النبي
 صادق ، ولسان حاله صادق ، ولكن لسان حاله أصدق من لسان
 مقاله ، لأن الحقيقة فوق العبارة . قال المعصوم : « قولى
 شريعة وعملى طريقة وحالى حقيقة » وحاله هو سنته .

الأصالة ..

إذا فهمنا هذا ، يتضح لنا أن المعصوم ، حين قال :
 « صلوا كما رأيتمونى أصلى » كأنما قال بلسان العبارة
 « قلدونى فى صلاتى باتقان ، وبتجويد ، حتى يفضى بكم تقليدى
 الى ان تكونوا أصلاء مثلى » ، أو كأنه قال : « قلدونى باتقان ،
 وبتجويد وبوعى تام ، حتى تبلغوا ان تقلدونى فى اصالتى » ..
 غير انه ليس فى الاصالة تقليد .. ولكن فيها تأس « لقد كان
 لكم فى رسول الله اسوة حسنة » « اسوة » قدوة فى كمال حاله .
 فالنبي آتانا بلسان الشريعة — لسان المقال — امرا
 بالتقليد ، وآتانا بلسان الحقيقة — لسان الحال — امرا بالاصالة

.. ولا تكون الاصاله الا بعد تجويد التقليد .. فالاصالة غاية من تقليدنا النبي ، وليس التقليد غاية في ذاته .

والمعراج الاكبر ، الذي ارتفع في مراقبه المعصوم ، بتوفيق الله ، ثم باعانة جبريل له ، قد ظل تحقيقه هدف المعصوم في جميع حياته ، بوسيلة معراجه الاصغر — الصلاة — وقد جعل الله له قره عينه في الصلاة ، لأن فيها تتحقق الجمعية بربه كل حين ، وبها تقطع ، عند كل ركعة ، مرحلة جديدة ، من مراحل القرب الى المقام المحمود .. مقام « مازاغ البصر وما طفى » . وهذا المقام يجب ان يظل هدف كل مصل من هذه الامة ، لأن به تمام المعرفة ، وكمال الشهود ، وهو الشهود الذاتى ، الذى يرقى فوق الشهود الاسمائى ، كما اسلفنا القول ، ولانه مقام تحقيق الفردية ، ولانه مقام الاستمتاع بالحرية الفردية المطلقة ، التى ورد ذكرها كثيرا في هذه الرسالة .

لقد تحدثنا في آيات سورة « والنجم » التى اوردناها آنفا عن سدره المنتهى ، حيث تخلف جبريل عن المعصوم ، وسار النبي بلا واسطة لحضرة الشهود الذاتى ، لأن الشهود الذاتى لا يتم بواسطة ، وقد كان تخلف جبريل عن النبي لانه لا مقام له هناك ، والنبي ، الذى هو جبريلنا نحن ، يرقى بنا الى سدره منتهى كل منا ، ويقف هناك ، كما وقف جبريل ، بيد انه انما يقف لكمال تبليغه رسالته ، ولكمال توسيله الى ربه ، حتى يتم اللقاء ، بين العابد المجود وبين الله بلا واسطة . فياخذ كل عابد مجود ،

من الامة الاسلامية المقبلة ، شريعته الفردية من الله بلا واسطة ، فتكون له شهادته ، وتكون له صلاته وصيامه وزكاته وحجه ، ويكون ، في كل اولئك ، اصيلا ، ويكون ، في كل اولئك ، متأسيا بالمعصوم في الاصلالة .. وانما يتم كل ذلك بفضل الله ، ثم بفضل كمال توسيل المعصوم الى ربه .. ذلك لن جود التقليد .

والى هذه الاصلالة الاشارة بقوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

كون السياق اخبارا عن الامم فهو واضح ، ولكنه اخبار عن الافراد أيضا ، وهو في باب الفردية أدخل منه في باب الاممية « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » : لكل فرد منكم جعلنا « شرعة » .. يعنى شريعة ، « ومنهاجا » يعنى سنة . « فشرعة ومنهاجا » .. يعنى شريعة وحقيقة .. فشرعية العارف طرف من حقيقته ، وهو فردى الحقيقة ، فردى الشريعة ، وشريعته الفردية فوق الشريعة العامة بما لا يقاس « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » يعنى لجعلكم على شاكلة واحدة — والامة هنا تعنى الفرد .. قال تعالى « ان ابراهيم كان امة ، قانتا لله ، حنيفا ، ولم يك من المشركين ، شاكرا لانعمه ، اجتباه وهداه الى سراط مستقيم » فأمة هنا تعنى اماما يقتدى به « ولكن ليلوكم فيما آتاكم » ولكن ليختبر كل فرد فيما آتاه من النعم المودعة في قلبه

وعقله ، ماذا فعل فيها ؟؟ هل زكاها ؟ يعنى نماها وحررها ام
دساها ؟ يعنى اهلها واخملها « فاستبقوا الخيرات » المعارف
« الى الله مرجعكم جميعا » وهنا دليل الفردية فى الآيه لأن
الناس لا يرجعون الى الله الا فرادى « ولقد جئتمونا فرادى
كما خلقناكم اول مرة » • وكما قلنا ذلك عند الحديث عن الفردية
ونزيد هنا قوله تعالى « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج
له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم
عليك حسبييا » « الزمناه طائره فى عنقه » طائره يعنى قلبه
« ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » يعنى قلبه أيضا
و « اقرأ كتابك » يقرأ ماكتبه عقله على صفحات قلبه من جهالات
أو معارف و « كفى بنفسك اليوم عليك حسبييا » الفردية فيها
ظاهرة •

« فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » معناها يجعلكم تحققون
فردياتكم التى بها يقع الاختلاف أو قل التمايز بينكم •
الامر فيما يخص التقليد والاصالة بايجاز هو هكذا :-
الله تبارك وتعالى هو الساير امامنا جميعا ، ولكن مواضع
اقدامه خفية لا ترى الا بنور قوى ، لم يكن يملك هذا النور غير
جبريل فسار يضع اقدامه على مواضع اقدام الله تماما وبدقة ••
ومواضع اقدام جبريل خفية ايضا ، لا ترى الا بنور قوى ، لم
يكن يملكه غير محمد ، فسار محمد يضع اقدامه على مواضع

اقدام جبريل تماما ، وبدقة ، ويحاول جاهدا ان يوضح مواقع اقدام جبريل بضغط اقدامه هو عليها ، فاصبحت واضحة لكل منا على صور متفاوتة .. وادنى هذه الصور وضوحا ، واضح بشكل كاف ، ليتبعه من هذه الامة اقلهم نورا ، ولكن بعض الناس اكتفى بالسير خلف النبي ، من غير ان يهتم بمواقع اقدام ، فذلك هو المقلد العادي ، وبعضهم اهتم بان يسير خلف النبي ، وبأن يضع اقدامه في مواضع اقدام النبي ، بضبط واتقان ، حتى لا يزيد اثر قدمه على اثر قدم النبي ، ولا ينقص عنه ، حيث امكنه ذلك ، فذلك المقلد المجود للتقليد .

ثم انه ، بفضل هذا الاتباع ، انعكست الانوار المحمدية على المقلدين ، كل على حسب بلائه ، فاصبح نظره يقوى حتى استطاع ان يرى مواقع اقدام جبريل ، التي كانت خفية عنه في اول امره ، ثم سار في اتقان تقليده ، حتى رأى مواقع اقدام الله التي كانت خافية على محمد ، فأخذ يوضحها له جبريل بسيره عليها ، وسار محمد بسير جبريل ، حتى قوى ، فاستقل بالرؤية والاتباع .

فاذا رأى المقلد ، المجود لتقليد النبي ، مواضع اقدام الالهية فإنه يستقل بالرؤية وبالاتباع . فيكون في آخر امره ، وبفضل اتقان تقليد النبي ، مقلدا لله بلا واسطة النبي .
وتعالى الله عن اقدام الحسية ، بالصورة التي نعرفها نحن وانما مواضع اقدامه مرامي الحكمة الخفية ، الباطنة ، في ارادته

تلك الحكمة ، التي خفيت ودقت ، ولطفت ، حتى أصبحنا نسير
امامه تبارك وتعالى ، وننتظر منه ان يتبعنا هو ، لفرط جهالتنا
وغفلتنا ، وذلك حين نختار ارادتنا على ارادته ، ونسخط ، في
سبيل ذلك الاختيار ، على ارادته هو « سبحانه وتعالى عما
يشركون » ان تقليدنا لله تعالى ، معناه سيرنا على مواضع ارادته
بتبعية ، واستسلام ، وتلك هي العبودية ، التي تحدثنا عنها
كثيرا هنا ، وقلنا انها هي التكليف الاصلى ، « وما خلقت الجن
والانس الا ليعبدون » • يذكرني هذا الحديث بأبيات المربي
الحكيم ، شيخ الطائفة الصوفية ، ابو القاسم الجنيد اذ يقول :
تظهر بماء الغيب ، ان كنت ذا سر

والا تيمم ، بالصعيد ، وبالصخر
وقدم اماما ، كنت انت امامه ،

وصل صلاة الفجر ، في اول العصر

فتلك صلاة العارفين بربهم

فان كنت منهم ، فانضح البر بالبحر

ولسنا ، في هذه الرسالة ، بصدد شرح هذه الايات ، وانما

يهمنا منها في هذا المقام :-

وقدم اماما ، كنت انت امامه ، وصل صلاة الفجر ، في اول

العصر ، « قدم اماما » يعنى الله « كنت انت امامه » كنت في حالة

جهلك تقدم نفسك عليه ، وتجعله وراء ظهرك ، كناية عن

اختيارك ارادتك على ارادته ، وسخطك على ارادته • « وصل

صلاة الفجر» . يعنى فجر الروح ، قبل خلق الاجساد ، « في أول العصر » يعنى أول عصر الخليقة ، في عالم الاجساد ، وذلك عالم الذر الذى قال تعالى عنه « واذا أخذ ربك من بنى آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ، ألسن بربكم ، قالوا بلى !! شهدنا ا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين - اوتقولوا انما اشرك آباؤنا ، من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ - وكذلك تفصل الآيات ، ولعلمهم يرجعون » ..

وقوله هنا « ألسن بربكم ؟ قالوا بلى ! » يعنى اقرار الخلائق قبل الاجساد بالعبودية وقوله « ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » اشارة الى الغفلة التى استولت على الناس فاذهلتهم عن عبوديتهم لربهم ، وجعلتهم يقدمون انفسهم عليه كما وردت الاشارة في ابيات الامام الجنيد وقوله « وكذلك تفصل الآيات ، ولعلمهم يرجعون » كقوله « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » والمقصود اننا جعلنا آيات القرآن ممهدة ، لتذكير الغافلين عن الميثاق ، الذى التزموه بالاقرار بعبوديتهم لربهم في عالم الذر ، في أول عصر خليقتهم ، حين قالوا بلى شهدنا فى الاجابة على سؤال الرب « ألسن بربكم ؟ »

و « صل » هنا معناها « أتبع » . والمصلى هو الذى يجىء

في صلى المجلى .. فالمجلى الأول ، والمصلى الثانى ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

انا بنى نهشل ، لاندعى لآب عنه ، ولاهو بالابناء يشرينا
ان تستبق غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

يتضح من هذا كله ، ان تقليدنا للنبي يقوى عقولنا ، لنصبح قادرين على ان تقلد الله ، ولذلك فقد قال المعصوم « تخلقوا باخلاق الله ، ان ربي على سراط مستقيم » وتقليدنا لله معناه ان نسير خلفه ، ولان تقدم عليه فنجعله خلفنا ، تعالى عن ظن الجاهلين .. وسيرنا خلفه هو العبودية ، التى هى أعلى مبلغ يبلغه الانسان ، وقد تحدثنا عن العبودية بما يكفى في هذا المقام .

الصلاة بين المؤمن والمسلم

ماذا يكون من امر آية « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ؟؟ فاسمع اذن .. المقصود هنا الصلاة الشرعية و « كتابا موقوتا » يعنى فرضا له اوقات يؤدى فيها ، و « على المؤمنين » مرحلة أمة البعث الأول ، وهى الامة التى نعيش الآن في أخريات ايامها ، وقد نذبت لتواصل سير ترقيا وتطورها الى « أمة المسلمين » وذلك حين قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » فعبزوا عن ذلك ، فنزل الى مستوى طاقتهم ، فخطبوا بقوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، وأطيعوا » وأنفقوا خيرا لانفسكم ،

ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وظل الأمر ، بالتطور ، والترقى ، والارتفاع من « أمة المؤمنين » الى « أمة المسلمين » قائما ، حيث المطلوب اليوم بروز الأمة المسلمة من الأمم الحاضرة ، التى قد انققت قرابة أربعة عشر قرنا ، في التجارب البشرية الخسبة ، فى معترك الحياة المادية والفكرية ، وان بعدت الشقة ، بين هذه الامم وبين الدين في جميع صوره ، واصبحت بذلك فى جاهلية جديدة ، هى أرقى من جاهلية أمة البعث الأول بآماد بعيدة ، وهذه الجاهلية الجديدة ، هى ما أسميناها ، فى صدر هذه الرسالة ، بالمدينة الغريبة الآلية الحاضرة التى نعيش جميعا على هداها ، والتى قلنا انها عملة ذات وجهين . وجه حسن ، ووجه دميم . وقلنا انها تطلب السلام اليوم طلبا حثيثا ، وانها لا بد لها من اعتناق الاسلام لتحقيق حاجتها الى السلام .. وسيكون دخول امم المدينة الغريبة الحاضرة الاسلام ضربة لازب ، وسيبدأ اسلامها من الاسلام الذى هو بداية ، ثم تمر على مرتبة الايمان ، وهو مقام أمة البعث الأول ثم يطرد ترقيا بوسائل العبادات ، ووسائل المعاملات ، وعلى قمتها الصلاة ، حتى ترقى برقى افرادها الى مرتبة الاسلام ، التى لم يحققها الا افراد ، من لدن آدم ، وقد قصر عنها حتى بعض الأنبياء .. فكل مسلم لا بد له ان يمر بمرحلة المؤمن ، قبل ان يتخطاها بالمزيد من الايمان ، والمزيد من العلم ، حتى يبلغ مرحلة الايقان ، والايقان على مراتب ثلاث .. مرتبة علم

اليقين ، ومرتبة عين اليقين ، ومرتبة حق اليقين . والقرآن يقول في ذلك « كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ويقول في حق اليقين من سورة الواقعة : « ان هذا هو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم » والاشارة بهذا الى « انه لقرآن كريم » التي سبقت في السياق هاتين الآيتين .. فحق اليقين هو القرآن .

ولا تكون مرتبة الاسلام قبل بلوغ مرتبة حق اليقين ، هذه ، كما سلف القول ، وكلما زاد العلم كلما زاد اليقين فاطمأنت النفس ، وسكن القلب ، فكان الرضا وكان الاسلام . والايان لا ينفك سايرا نوره امام السالك في مراقى الاسلام ذلك بأن كل درجة يبلغها ويستيقنها اليوم انما كانت في منطقة الايمان بالأمس ، وهى لاتصبح منطقة يقين حتى يرتفع ايمانه الى منطقة جديدة ، كانت قبلا خارجة عن الاعتبار .. فالايان هو مقدمة الايقان .. أو قل هو عكاز الاعمى ، يتحسس به مواقع قدميه ريثما ينقلهما لأمام على بصيرة ما ، والصلاة الشرعية هى العمل الذى يرفع الايمان ، ومن ورائه الأيقان ، في المراتب المختلفة ، وقد أوردنا فى ذلك قوله تعالى « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ويصبح شأن الآية « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا

موقوتا » مع المسلم ، الذى يمر بمرحلة الايمان ، الذى هو مرتبة الأمة الاولى ، ان الصلاة الشرعية ، فى حقه ، فرض له اوقات يؤدى فيها ، فاذا ارتقى : بحسن ادائها بتجويده تقليد المعصوم ، حتى ارتقى فى مراقى الايقان ، التى ذكرناها ، حتى بلغ حق اليقين ، وسكن قلبه ، واطمأنت نفسه ، فأسلمت ، طالعه المعنى البعيد لكلمة « موقوتا » فى الآية « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وذلك المعنى ، فى حقه هو ، ان الصلاة الشرعية فرض ، له وقت ينتهى فيه ، وذلك حين يرتفع السالك الى مرتبة الأصالة ، ويخاطب بالاستقلال عن التقليد وينتهى ليأخذ صلاته الفردية ، من ربه بلا واسطة تأسيا بالمعصوم .. فهو ، حينئذ ، لا تسقط عنه الصلاة ، وانما يسقط عنه التقليد ، ويرفع من بينه وبين ربه ، بفضل الله ، ثم بفضل كمال التبليغ المحمدى ، الحجاب الاعظم .. الحجاب النبوى •

ان الاسلام ، فى حقيقته ، ليس دينا بالمعنى المألوف فى الاديان ، وانما مرحلة العقيدة فيه مرحلة انتقال الى المرحلة العلمية منه .. مرحلة الشريعة فيه مرحلة انتقال الى مرتبة الحقيقة .. حيث يرتفع الافراد ، من الشريعة الجماعية ، الى الشرائع الفردية ، التى هى طرف من حقيقة كل صاحب حقيقة ، وتكون الشريعة الجماعية محفوظة ومرعية لمصلحة السلوك والتربية والتنظيم للقاعدة البشرية ، التى تستجد كل يوم ، وتجاهد بالتجارب كل حين لترقى المراقى •

والذين يدخلون في مراتب الشرائع الفردية ، هم المسلمون
حقاً - هم الاحرار ، الذين سبقت الاشارة اليهم ، في هذا
الجديد ، حين قلنا ان الحرية فردية مطلقة ، هو الذي استطاع ان
يعيد وحدة الفكر ، والقول ، والعمل الى بنيته . فاصبح يفكر
كما يريد ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون عاقبة
عمله الا خيرا للناس ، وبرا بهم ، وبذلك يستطيع ان يعيش فوق
قوانين الجماعة ، لانه ملزم نفسه بشريعته الفردية ، وهي فوق
مستوى الشريعة الجماعية ، في التجويد ، والاحسان ، والبر ،
والتسامي .

« الاسلام دين الفطرة » معناها دين « علم النفس » ، وهو
سيهدي البشرية ، من حيث هي بشرية ، بصرف النظر عن الوانها ،
والسنتها ، الى ضالتها المنشودة . هو سيهدي كل انسان الى
نفسه ، لانه كما قلنا « علم نفس » وهو بهذا المستوى العلمي ،
سينتصر في عصر العلم على الاديان التقليدية ، فيتحقق موعود
الله تعالى : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ،
ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » « بالهدى » الى
النفوس كما قال « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه » « ودين
الحق » يعنى دين العلم ، ولسنا نريد الاطالة ههنا ، فان له سفرا
خاصا سيكون عنوانه « العهد الذهبي للاسلام امامنا » .

كيف نخرج بصلاة التقليد الى الأصالة

أول ما يقال ان الصلاة هي اشرف عمل العبد ، وانه يجب ان يؤخذ كل مايتعلق بها مأخذ الجد التام . . فالحضور فيها يجب ان يكون تاما جهد الطاقة ، وان تكون الطاقة مبذولة باستمرار ليطول الحضور فيها ، وانما يكون الحضور فيها قبل الدخول فيها ، ومن أجل ذلك شرعت الطهارة الكبرى ، أو الصغرى قبلها ، مائية كانت ، أو ترابية ، وقصد منها اعداد القلب ليدخل فيها بحضور . . والنجاسة ، في الاصل ، ليست نجاسة الأعضاء الحسية بالحدث ، وانما هي نجاسة القلب بالغفلة عن الله . وانما جعلت النجاسة الحسية دليلا عليها .

قال السيد المسيح « ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان . بل ما يخرج من الفم . . هذا ينجس الانسان » يشير بما يدخل الفم الى النجاسة الحسية ، التي تكون من فضلات الطعام والشراب . ويشير بما يخرج من الفم الى كلام المتكلم فيما لا يعنيه ، أو فيما لا يعلم « اذ تلقونه بالسنتكم ، وتقولون باقوا همك ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » ويقول المعصوم « ان في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح سائر الجسد ، واذا فسدت فسد سائره ، الا وهي القلب » .

وقد فرض الشارع الطهارة الصغرى بالماء ، أو بالصعيد نائبا عن الماء ، عند تعذره ، أو عند تعذر استعماله ، في حالة النجاسة بخروج الغائط ، أو البول ، أو الريح ، أو في حالة النوم أو حالة

النسيان • وفرض الطهارة الكبرى بالماء ، أو بالصعيد فأبى عنه ،
عند تعذر وجوده ، أو تعذر استعماله ، عند الجماع ، أو الاحتلام ،
أو الاغماء ، أو الدخول في الاسلام •

ويمكن رد كل اولئك الى الغفلة • فالأمر فيهما يرجع ، أما
الى ممارسة لذة البطن ، وتأتج تلك اللذة خروج الفضلات ، وأما
الى ممارسة لذة الفرج ، بالمواقعة ، أو الاحتلام ، أو مادون ذلك ،
والغفلة دائما تصحب ممارسة اللذة •

وقد أوجب الفسل على المشرك اذا دخل الاسلام ، لانه كان
غافلا عن الله ، الغفلة الكبرى ، حين كان مشركا ، وأما الغفلة في
حالة الاغماء ، أو حالة النوم ، أو حالة النسيان ، فأمرها واضح •
فالنجاسة ، اذن ، انما هي نجاسة القلب بالغفلة عن الله ،
وانما جعلت النجاسة الحسية عليها دليلا ، وعندما شرعت الطهارة
الحسية للأعضاء الحسية ، بالماء الحسى ، انما اريد ان تكون هذه
الطهارة بمثابة القشرة ، وليتها الطهارة المعنوية للأعضاء الباطنية
— القلب والعقل — بالماء المعنوى ، وهو العلم • يقول تعالى :
« انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها • » الماء الحسى
معروف ، والاودية الحسية معروفة ، ولكن من الناحية الباطنية
الماء القرآن والأودية القلوب • « فسالت أودية بقدرها • » يأخذ
كل قلب من القرآن طاقته من النور •

فإذا اردت ان تحضر في الصلاة فيجب ان تحضر في الوضوء ،
ويجب ان تعرف له من الحرمة ما تعرف للصلاة تماما ، لأنه طرف
منها ، فهو يبطل بما يبطل به الصلاة .

والنية في الوضوء متعلقة مع غسل الأعضاء .. فلا يكفي فيها ان تقول عند الشروع في الوضوء ، سواء بحضور أو بلا حضور ، « نويت ان اتوضا » مثلا ، ثم تذهب في ثرثرة أو غفلة ، تجول اثناءها في آفاق بعيدة ، بينما تتحرك اعضاءك في الوضوء ، بشكل تملله العادة فقط .

عندما تغسل يديك تذكر ، ماذا اقترفت بهما قبل مجلسك ذلك
للوضوء ؟ هل بطشت بهما بيزى ؟ هل اخذت بهما حقاً ليس
بحقك من حقوق الناس أو من اعراضهم ؟ هل قبضتهما عن نصره
مظلوم ، أو هل قبضتهما عن بسط الخير لمحتاج ؟ فإذا تذكرت
شيئاً من هذا ، فاستشعر الندم « واعتزم التوبة ، واستغفر الله .

وإذا تذكرت حسنة فأخرج نفسك من رؤيتها وانسبها لله ،
 ولحسن توفيقه اياك واشكره عليها . وليكن فرحك بالله لا
 بعملك . فإذا انتقلت الى الفم ففكر في الاسنان وما مضت ، هل
 كان حراما أم حلالا ؟ وفكر في اللسان ، ترجمان القلب . هل
 تحدث فيما لا يعنيه ؟ هل اغتاب الناس ؟ هل صمت عن قولة
 الحق ، وعن نصرة المظلوم ، وعن تلاوة القرآن ؟ فإذا تذكرت شيئا
 مما تكره ، فاستشعر الندم ، واعتزم التوبة ، واستغفر الله .
 وافعل مثل ذلك عند الاذن . . استرسالها في سماع الغيبة وفي
 سماع اللغو ، وانقباضها عن سماع القرآن ، وقولة الحق ،
 وكذلك العين . . هل نظرت الى محرم ، أو غمزت عرض أحد ،
 أو لم تنتظر في المصحف ؟ وكذلك الأنف ، مظهر الأنفة
 والعزة ، هل ترفعه على خلق الله تكبرا ، أم تضعه لله في
 الرغام ، ذلا وتعبدًا ؟ والرأس ماذا يحوى ؟ هل علما ينفعك وتعمل
 به ، أم قشورا تضرك ولا تنفعك ؟ وإذا انتقلت الى الرجلين تذكر ،
 هل مشيت بهما الى المساجد ، وإلى مواطن العلم ، والذكر ، وهل
 تمشي بهما في حاجة الناس ، وفي مواصلة الجيران ؟ هل حملتاك
 نحو فاحشة ، أو حرام ، أو عمل لا يرضى عنه الله ؟ وكلما ذكرت
 عملا ، من هذه الاعمال التي لا ترضى الله ، فاكثر من الاستغفار ،
 وصحح عزم التوبة ، وإذا تذكرت عملا يسرك فلا تعظم من عملك ،
 ولا تقف عنده طويلا ، ولا تنسبه لنفسك ، بل اشكر الله عليه ،

ان وفقك اليه بمحض فضله ، بدون استحقاق منك لذلك التوفيق .
ولا يظنن أحد ، ان هذا العمل الذي ذكرناه ، يستغرق وقتاً
طويلاً ، فانه يحدث في وقت الوضوء العادي ، والذي يجب ان
يكون متصلاً ، وفورياً ، ولا يجب ، بالطبع ، ان تذكر كل كبيرة
وصغيرة ، وخصوصاً في بادئ امرك .. واذا انشغلت بجرم
كبير اقترفته احدى الجوارح استغرق كل وقتك ، اثناء الوضوء
— تكلبه ، وتستهوله ، وتستدركه بالندم والتوبة والاستغفار ،
فانه يكفى .. فالامر المهم هو اقبالك على قلبك بالتطرية
والتلين .. واذا نوعت بقراءة القرآن ، اثناء الوضوء وانت
حاضر يواظب على قلبك لسانك ، فانت بسبيل ما تريد هنا ..
ثم انه ، مع طول المران في هذه المحاسبة ، فان المخالفات تقل ،
والانحصار يزداد ، وشريط الاعمال يمر بسرعة ، ويلين القلب ،
ويستجيب ، لانه لازم الحضور كثيراً .

فاذا فرغت من وضوئك ، بهذه الصورة ، يكون قلبك قد
تطهر بنور العلم ، ولان بنار الندم ، وتكون اعضاؤك قد تطهرت
بالماء ، فاذا ما قمت للصلاة ، فانك وشيئك ان تحضر فيها ،
بجمعية مناسبة .

ثم انك اذا شرعت في الصلاة ، فاعلم ان للصلاة حضرتين ..
حضرة الاحرام ، وحضرة السلام ، وان لكل من هاتين الحضرتين
ادبها الذي لا تصلح الا به .

فاما الحضرة الاحرام ، فتبدأ عند شروعك في الصلاة بتكبيرة

الاحرام ، وتنتهى عند خروجك منها بعبارة السلام .. وادبها
 حسن الحضور فيها مع الله ، وستحصل الغفلة بالطبع ،
 وخصوصاً في بداية السلوك ، ويصح أدب الحضور باستشعارك
 الندم ، بعد الصلاة واستغفارك الله بعدها ، وعدم رضاك عن
 نفسك بها ، وذلك بنظرك دائماً الى جوانب النقص منها ، مهما
 كانت حالة حضورك فيها ، وبنظرك الى جلال من أنت قائم بين
 يديه .. فان العارفين لقدره ، عندما ينصرفون من الصلاة ،
 ينصرفون وهم يستشعرون ندم من ارتكب جرماً عظيماً في
 العلانية ، وقد اطلع عليه الناس . وعند ذكرك الثلاث تسييحات ،
 ثلاثاً وثلاثين مرة .. سبحان الله ، والحمد لله ، والله اكبر ،
 فعند « سبحان الله » نزهه ان تكون صلاتك تلك في مستوى
 استحقاقه منك ، وعند « الحمد لله » استشعر فضله ، اذ انه
 لم يطردك من حضرته مع سوء ادبك معه ، حين جرت بقلبك
 الغفلة وانت بين يديه ، مع انك ، لو كنت واقفاً امام ضابط
 المجلس البلدى ، في بعض حاجات دنياك ، تكون في حالة
 حضور تام لما يقول لك في شأن حاجتك تلك .. ثم انت ، امام
 ملك الملوك ، غافل عن كلامه ، اذ يكلمك .. تقرأ باللسان ،
 والقلب غايب . وعند « الله اكبر » تأكد تماماً ان الله اكبر من
 ان تكبره انت ، في جميع تكبيرات صلاتك ، وفي جملة صلاتك ،
 فبمثل هذا الشعور بالذل وبالقصور ، يتم ادبك في حضرة
 الاحرام .. ويكون طريق العبودية امامك ممهداً وميسراً ..

ثم ما ينبغي ان يدفعك استشعار القصور الى اليأس ، بل الى اصلاح النقص دائما ، والى انتظار الخير من فضل الله لا من عملك ، فيكون نظرك الى الفضل لا الى العمل فقد قال المعصوم « لا يدخل احدكم بعمله الجنة » قالوا : و لانت ؟؟ قال : « ولا انا الا ان يتغمدنى الله برحمته » .

واما حضرة السلام ، فتبدأ بعبارة السلام للخروج من حضرة الاحرام ، وتنتهى عند تكبيرة الاحرام للدخول فى الصلاة المقبلة .. فهى الصلاة بين الصلاتين .. هى الصلاة الوسطى ، التى قال تعالى عنها « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » يعنى حافظوا على الصلوات الخمس المكتوبة بتمام ادائها لمواقيتها ، وكمال اركانها « والصلاة الوسطى » هى معاملة الناس بين الصلاتين المكتوبتين بمعاملة الله فيهم « وقوموا لله قانتين » يعنى كونوا لله ذاكرين ، غير فاسين ، فى كل مقام تقومونه ، فى المنشط والمكره ، وفى متقلبكم ومثواكم ، واثناء اخذكم وعطائكم ، فى معاملاتكم بعضكم بعضا ، فى امور معاشكم ، وفى امور معادكم .

ولهذه الحضرة أدب جماعه السلام ، وقد اجمله المعصوم فى عبارة « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . ولشمول معنى الحديث قلنا ان « المسلمون » تعنى كل خلق الله ، من الأشياء والاحياء ، فان كل شئ قد خلق بحكمة ، ويجب ان نتوخى حكمة الحكيم فى مباشرتنا اياه . « قل أمر ربي بالقسط ،

واقيموا وجوهكم عند كل مسجد » والقسط يعنى توخى العدل والحكمة فى كل معاملة ، « واقيموا وجوهكم عند كل مسجد » يعنى اقبلوا على الله بوجوهكم ، لا بظهوركم ، ومعنى هذا ، الاقبال عليه ، بالحضرة لا بالغفلة . و « عند كل مسجد » يعنى فى كل حين ، لأن المسجد هنا لا يعنى البناية المعدة للعبادة المكتوبة فقط ، وانما يعنى كل بقعة من بقاع الارض . . فى السوق ، وفى الشارع ، وفى المكتب ، وحيثما تكونوا ، لأن الارض كلها قد جعلت للمسلم مسجدا . . وفى الحق ان المساجد هى الذوات كلها ، وخصوصاً الذوات البشرية ، وبشكل أخص من كان منها مقبلاً على الله . . وذلك بأن الله تعالى يقول « ماوسمى ارضى ولا سمائى وانما وسمنى قلب عبدى المؤمن » والمساجد هى بيوت الله . . هى قلوب العباد ، بالمعنى العام وبالمعنى الخاص ، ومن يفهم شمول القرآن يعرف أن « واقيموا وجوهكم عند كل مسجد » تعنى ، عاملوا الأشياء والاحياء ، بعناية وتوقير من يقوم فى محراب الصلاة المكتوبة . وأدنى مراتب أدب حضرة السلام افشاء السلام بين الناس ، بالاكثار من التسليم عليهم بعبارة « السلام عليكم » . ولا يكن قولها عن طريق العادة ، ولكن بنية المسالمة والمواددة حاضرة فى القلب . . ثم يلى افشاء السلام ، كف الاذى عن الناس . . ثم يليه احتمال اذاهم ، ثم يليه توصيل الخير اليهم ، بالنية الطيبة فى الضمير والقول الطيب

باللسان ، فאלله تعالى يقول « وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ،
ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا »
ويقول « وقولوا للناس حسنا » .

ثم بالعمل الصالح ، والسعى الصالح ، فى حاجات الناس ،
والقاعدة « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أو
« عامل الناس بما تحب ان يعاملوك به » أو بما تحب ان يعاملك
الله به ، يوم فقرك وحاجتك ، فانك كما تدين تدان .

وهذه الحضرة — حضرة السلام — تتطلب نفس الحضور
الذى تتطلبه حضرة الاحرام ، وذلك أثناء معاملتك الناس . فانك
تتوخى وجه الله دائما ، وتراقب حالك دائما ، وقد سميت تلك
الهيئة بالمراقبة ، وبالمراقبة تكون حال التقوى .. فان التقوى
هى عمل ، أو ترك للعمل ، ابتغاء وجه الله .. « ومن يتق الله
يجعل له فرقا » و « الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى
للمتقين » « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وستحصل الغفلة فى حال المراقبة بالطبع ، ويفلت الزمام من
بعض الجوارح ، وخاصة اللسان ، ويقع الخطأ ، ويتورط
السالك فى مخالفة أدب هذه الحضرة — حضرة السلام . ويكون
جبر المراقبة بالمحاسبة ، التى ذكرناها عند الوضوء ، الذى يكون
فى اخريات حضرة السلام ، للتهيؤ للدخول فى حضرة الاحرام

الجديدة ، وفي المحاسبة استدراك لما افلتت من المراقبة ، كما يقول اصحابنا . ثم ، لجبر سوء الأدب في حالتى حضرة الاحرام وحضرة السلام ، لابد من الصيام ، ولا بد من تقليل المنام ، وتقليل الكلام . . فان قلة الطعام ، وقلة المنام ، يقللان فضول الفكر ، وفضول الخواطر ، وفضول القول ، ومن ثم فضول العمل ، ويجعلان القلب متفرغاً ، للاقبال على الله بجمعيته .

وهناك امر يسير ، وهين ، وخفيف في الاداء ، ولكنه عظيم النفع ، وقد كان سنة المعصوم ، وهو مراقبة تفضيل الميامن على المياسر . . فقد كان اذا دخل المسجد قدم رجله اليمين ، واذا خرج منه قدم رجله الشمال ، وكان اذا دخل المرحاض قدم رجله الشمال ، واذا خرج قدم اليمين ، وكان اذا نام توسد يده اليمين ، واستقبل القبلة ، وكان اذا اراد ان ينتعل بعد نهوضه من مجلسه ، قدم رجله اليمين ، اذا كان النعل الين من الفراش الذى كان واقفا عليه ، او قدم رجله اليسرى ، اذا كان الفراش الين ، وانعم من النعل . فمثل هذه الاعمال اليسيرة لها عظيم الفائدة في محاربة العادة ، التى تسيطر على تصرفاتنا دائماً ، اذ نتحرك في كثير من اعمالنا بغير وعى ، ولا فكر منا ، وانما بما تمليه العادة ، وفي محاربة العادة تنشيط للفكر ليحل محلها . . ان آفة كل عبادة أن تكون عادة . . هذه قاعدة ذهبية يحسن تذكرها كثيراً .

وايقاظ الفكر هو غرض العبادة ، ولذلك فقد قال تعالى
« وانزلنا اليك الذكر ، لتبين للناس مآزل اليهم ، ولعلهم
يتفكرون » .

« وانزلنا اليك الذكر » يعنى القرآن و « لتبين للناس مآزل
اليهم » يعنى لتفصل للناس شريعتهم ، « ولعلهم يتفكرون »
يعنى لعل العبادة تشحذ فيهم ملكة التفكير ليتولى الذكر توجيهها
في مراقبتها العليا .

ثم ان تفضيل الميامن على المياسر هو اعطاء كل ذى حق حقه ،
وهو وضع الاشياء في مواضعها .. وهو الحكمة ، التى هى
اخلاق الله .. وقد قال المعصوم : (تخلقوا باخلاق الله ، ان
ربى على سراط مستقيم) فكأننا بهذا العمل اليسير ، البسيط
في تقليد المعصوم ، قد بدأنا التخلق باخلاق الله .. وبفضل الله
وبتوفيقه ننتقل في معارج الحكمة ، حتى نبلغ من هذه البداية
السادجة ، البسيطة ، مبلغ المعرفة بالله ، اذا مارسنا بعقول
مفتوحة ، وجعلنا العدل والقسط والاستقامة هى اسلوب معاملتنا
للأشياء والاحياء .

خاتمة

اما بعد فهذه رسالة الصلاة .. تتحدث بإيجاز عن الصلاة في أدنى مستوياتها ، حيث تكون عبادة لله ، وفي أعلى مستوياتها ، حيث تكون حياة عند الله .. وكل عبادة لله ، إنما المراد منها أن تصير حياة لله ، فإن قصرت عن ذلك فهي باطلة .

وسيفطن اقوام ان في هذا القول شططا ، واننا غير مكلفين به ، كما تعودنا ان نسمع منهم دائما ، فليقرأ هؤلاء قوله تعالى « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون » وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا الاسلام ، الذي هو نهاية ، أذ به يتم سلامنا مع نفوسنا ، وسلامنا مع أخواننا في الحياة .



الفهرست

الصفحة

٢	الاهـداء
٥	مقدمة الطبعة الخامسة
٩	مقدمة الطبعة الرابعة
١٠	الدين .. الدين ما هو ؟
١٣	الانسان .. الانسان ما هو ؟ ومن هو
١٤	المرحلة الاولى من نشأة الانسان
١٤	المرحلة الثانية من نشأة الانسان
١٦	المرحلة الثالثة من نشأة الانسان
١٨	النسوة الاولى - خلافة الارض
٢٠	نشأة العقل
٢٥	ما هي الحاسة السادسة ؟؟
٢٥	ما هي الحاسة السابعة ؟؟
٢٧	المرحلة الرابعة من نشأة الانسان
٣٠	عودة للمرحلة الثالثة من نشأة الانسان
٣٣	الدين قبيل آدم
٤٠	العقل الواعى والعقل الباطن
٤٧	العقل الواعى ، وكيف نشأ ؟

٥٦	وحدة البنية البشرية
٦١	خاتمة
٦٢	بشارة
٦٤	توطئة البحث
٦٥	المدنية الجديدة
٦٦	المدنية الغربية ذات وجهين
٦٧	الفضل للتوحيد
٦٨	الفردية هي المدار
٧٣	الحرية الفردية المطلقة
٧٤	الصلاة وسيلة
٧٦	الرضا بالله عبودية
٧٨	العبودية هي الحرية
٨٣	ما هي الصلاة
٨٦	للصلاة معنيان
٩٤	التقليد
٩٦	الاصالة
١٠٣	الصلاة بين المؤمن والمسلم
١٠٨	كيف نخرج بصلاة التقليد الى الاصالة
١١٩	خاتمة